



الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة
وزارة التثقيف

تتائج اللغة العربية في مصر

تأليف
دكتور أحمد مختار عمر

الناشر
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
القاهرة
١٣٩٠م - ١٩٧٠م

تنسيق وفهرسة
د/ الشويحي



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

تتائج اللغز العربي في مصر

تأليف

دكتور أحمد مختار عمر

الناشر

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
القاهرة

١٣٩٠م - ١٩٧٠م

تَاجِجُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
فِي مَعْنَى

المكتبة العربية

تصدرها

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

الجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

وزارة الثقافة

المحتوى



الصفحة

٧	مقدمة
٩	تمهيد : اللغة العربية في مصر قبل الإسلام
١٧	الباب الأول : استيطان اللغة العربية في مصر
١٩	الفصل الأول : الصراع بين اللغتين - نظرة عامة
٢٩	الفصل الثاني : المرحلة الأولى من الصراع (مرحلة المناوشة)
٣٨	الفصل الثالث : المرحلة الثانية من الصراع (مرحلة التقدم)
٥٥	الفصل الرابع : المرحلة الثالثة من الصراع (مرحلة النصر)
٥٦	الفصل الخامس : النهضة الثقافية في مصر و أثرها على اللغة العربية
٦٩	الباب الثاني : الخصائص اللغوية لعربية مصر
٧١	تمهيد :
٧٢	الفصل الأول : صعوبات على الطريق
٧٩	الفصل الثاني : مادة التحليل المعنوي
٩٥	الفصل الثالث : المؤثر الأول (اللغة القبطية)
١٢٤	الفصل الرابع : المؤثر الثاني (اللهجات العربية)
١٤١	الفصل الخامس : مؤثرات أخرى
١٤٩	خاتمة : دراسة مقارنة : مدى تأثير المتبادل بين القبطية والعربية
١٥٩	المراجع :

مقدمة

قصة اللغة العربية في مصر من القمص الشائقة التي تستحق التسجيل ، وتغرى بالدرس . وهي - من ناحية ثانية - قصة لم تبذل الجهود الكافية - حتى الآن - لتحليلها ، ورصد حركاتها على الرغم من قدمها وطول العهد بها . وهي - بالإضافة إلى هذا - قد اختلطت بكثير من الشوائب لارتباطها من ناحية بانتشار الإسلام ، وما أكثر ما قيل عنه إن صدقا أو كذبا ، ومن ناحية أخرى باللغة القبطية ، وما أكثر ما بولغ في تصوير أثرها على اللغة العربية سواء في ناحية الإيجاب أو السلب .

وأخطر فترة في تاريخ اللغة العربية في مصر ، هي تلك التي تبدأ مع الفتح العربي (عام ٦٤٠ هـ = ٦٤٠ م) حين كانت اللغة القبطية ماتزال لغة حية يتكلمها عامة الشعب في طول البلاد وعرضها - وتمتد لتغطي قرابة ثلاثة قرون أخذ ظل اللغة القبطية ينحسر فيها عن البلاد رويدا رويدا إلى أن تلاشى من الوجود أو كاد .

ومن أجل أهمية تلك الفترة التي سبقت أو تلت مباشرة استقرار اللغة العربية في مصر ، وعمق الخط الذي حفرته على عربية مصر رأيت أن أخصها بهذا البحث ، وأفردتها بالحديث . وقد راعيت فيما كتبت أن أتجنب التفاصيل والتشعبات الكثيرة بقدر المستطاع ، والتزمت بساطة العرض ، ووضوح الفكرة ما أمكن ، حتى يفهمنى القارئ العادى ، ويستفيد من البحث المتخصصون وغير المتخصصين على السواء .

ولأعطي الموضوع من جميع أطرافه ، رأيت أن أقسم البحث إلى تمهيد وبابين . أما التمهيد فقد تناولت فيه - باختصار - تاريخ اللغة العربية في

مصر قبل الفتح الإسلامى ، وأثر اللغة المصرية عليها . وأما الباب الأول فقد عالجت فيه مراحل الصراع بين اللغتين المصرية والعربية ، والعوامل التى تدخلت فى كل مرحلة فى جانب أى منها أو ضده ، والنتائج التى انتهت إليها كل مرحلة . وقد سرت بالصراع إلى آخر مراحلها ، فلم أتوقف إلا حين خلا الميدان للغة العربية وأصبحت وحدها اللغة العامة المشتركة لجميع المواطنين على السواء . وأما الباب الثانى فقد تناولت فيه بالإيضاح خصائص عربية مصر فى ذلك الوقت ، والعوامل المختلفة التى تدخلت حينذاك لتطبعها بطابعها ، أو تصبغها صبغة معينة . واستقيت المادة التى حللتها فى هذا الباب من الوثائق وأوراق البردى التى اكتشفت مؤخرا فى أماكن مختلفة من مصر ، ومن الكتب التى كتبها مؤلفون أقباط عاشوا خلال تلك الفترة ، وسجلت كتبهم خصائص أسلوبية معينة ، وأخيرا من كتب الأدب والتاريخ المختلفة التى حفظت لنا بطونها نماذج لكتابات ذلك العصر .

وأنهيت البحث بنخامة بينت فيها مدى التأثير المتبادل بين القبطية والعربية . وأرجو أن يكون هذا البحث حلقة فى سلسلة بحوث أخرى تناولت - من ناحية - عربيات البلاد العربية فى أولى أيامها - أو البلاد التى كانت عربية - وصراعها مع اللغات المحلية التى صادفتها حينذاك ، ومن ناحية أخرى مراحل تطور اللغة العربية فى كل بلد على حدة عبر القرون .

والله الموفق

د . أحمد مختار عمر

تمهيد

اللغة العربية في مصر
قبل الإسلام

لم تكن اللغة العربية غريبة على مصر حين جاء الإسلام إليها ، فقد كان لها هناك تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل ظهور الإسلام ، وربما قبل ظهور المسيحية أيضا ، حين كانت وفود القبائل العربية تقصد مصر إما للتجارة أو للاستقرار .

فمن ناحية التجارة ، أشار المؤرخون إلى أنه كانت هناك خطوط تجارية برية وبحرية تصل بين مصر والجزيرة العربية . وتفيد المصادر اليونانية واللاتينية (١) وغيرها أن مدينة غزة كانت في ذلك الوقت ميناء تجاريا هاما ، ومركزا يلتقي فيه التجار ورجال الأعمال لعقد الصفقات التجارية . وكان التجار العرب يقدمون إليه لبيع ما عندهم من حاصلات اليمن وجنوب الجزيرة العربية وشراء ما يلزمهم مما يرد على هذه المدينة من البحر من حاصلات اليونان وإيطالية ومصر وغيرها . وتشير إحدى الوثائق (٢) التي يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق.م إلى وجود علاقات تجارية بين المصريين والعرب في تلك الفترة النائية . ومن الثابت كذلك أن عمرو بن العاص زار مصر قبل الفتح الإسلامي بوصفه تاجرا ، وذهب إلى الدلتا ومن بعدها إلى الإسكندرية (٣) ، وأن خبرته بالبلاد المصرية هي التي جعلته يفكر في غزوها ويغري الخليفة بذلك ، وهي التي سهلت له عملية الفتح .

وأما بالنسبة للهجرات العربية بقصد الاستقرار ، فقد كانت هناك كثير من الموجات دفعت بها بلاد العرب إلى مصر في العصور الفرعونية .

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد عل ١٣٢/٨ .

(٢) المرجع السابق ٦٧/٨ و٦٨ .

(٣) الأكتدي : الولاة ص ٦ - ٧ ضمة بيروت ١٩٠٨ ، وانظر تاريخ مصر الإسلامية

لشبال ص ٥ وما بعدها .

وكان طريق سيناء قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات منذ القدم . ومن هذه الهجرات ما كان يؤخذ فيه رأى حاكم مصر ويتم بموافقته . وقد أشار المؤرخون إلى سلسلة من تلك الهجرات أخذت مكانها قبل الفتح الإسلامى ، ومن بينها :

- ١ - هجرة قبائل كهلانية من عرب الجنوب ذات أصل قحطاني استقرت فى الجزء الشمالى الشرقى من مصر . وقد تم ذلك مع مطلع المسيحية (١) .
- ٢ - هجرة قبائل من « طيء » (فرع كهلاني آخر من المجموعة الجنوبية) كان من أهمها قبيلتنا لحم و جذام اللتان استقرتا فى إقليم الشرقية (٢) .
- ٣ - قبيلة « بلى » التى دخلت مصر قبل الإسلام واستوطنت ما بين القصير وقتنا . وكان عليهم الاعتماد فى نقل التجارة الهندية . وقد قدم وفد منهم إلى الرسول وأسلموا (٣) .
- ٤ - هجرة بطون من خزاعة ، وهم فرع من الأزد خرجوا فى الجاهلية إلى مصر والشام لأن بلادهم أجذبت .
- ٥ - استقرار بعض الجماعات العربية قبل الإسلام فى شرق الدلتا .
- ٦ - وقد أشار المؤرخون اليونان بما فيهم استرابو (٦٦ ق.م) وبلينيوس (٧٠ م) إلى أن عدد العرب فى عهدهم قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين نهر النيل فى أعلى الصعيد . وكان لهم جماع ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر الأحمر والنيل (٤) . وقد وصف استرابو كذلك مدينة قفط Koptos بأنها مدينة

(١) سيامس عمار : The People of Sharqiya .

(القاهرة : ١٩٥٤) ٢١/١ .

(٢) المرجع السابق ٢٣/١ .

(٣) المرجع السابق ٢٤/١ .

(٤) انظر « البيان والإعراب » ص ٨٩ .

واقعة تحت حكم العرب (١) ، وصرح بأن نصف سكانها يتكونون من أولئك العرب (٢) .

٧ - ذكر هيرودوت أن (٣) الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل كانت مأهولة بقبائل عربية .

٨ - في عهد عمر بن الخطاب - بعد فتح الشام وقبل فتح مصر - هاجرت بعض القبائل من غسان ولحم وجذام وعاملة - التي كانت تدين بالمسيحية - إلى مصر ، واستقرت هناك في الجزء الشمالي الغربي من «سيناء» . وقد منحهم الإمبراطور الروماني حينذاك إقطاعية «تنيس» (صان الحجر) ؛ وقد قابلت النجدة التي أرسلها عمر بن الخطاب عبر وسط سيناء لمساعدة عمرو جمعا هائلا يبلغ نحو ثلاثة آلاف ، وحين سألوهم عرفوا أنهم من عرب غسان ولحم وعاملة . (٥)

و بالإضافة إلى هذا فإن الوثيقة السابق الإشارة إليها ، والتي يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق.م تفيدنا أنه كانت توجد في ذلك الوقت المبكر جالية عربية كبيرة مكونة من القبائل التي هاجرت من جنوب الجزيرة العربية واستقرت في مصر . وإنه لمن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أن لغة هذه الوثيقة تبدو قوية الصلة باللغة العربية ، مما يدل على أن هؤلاء العرب كانوا يكوّنون جزيرة لغوية في مصر ، وأن هذه الجالية ظلت مخلصة لقوميتها محتفظة بأبجديتها تكتب بها وتعزّز بتراسها . والوثيقة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة لأنها

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة Kibt ص ٩٩١ (طبعة أولى) . والبيان والاعراب لمقرئى ٨٩ .

(٢) عروبة مصر من قبائلها ، للأستاذ مصطفى كامل الشريف ص ٢٢ . (المطبعة العالمية سنة ١٩٦٥) ومصر العربية الإسلامية للدكتور على حسن الخربوطل ص ١٥ .

(٣) جراد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٥/٧ و ٢٦ .

(٤) المترئى : البيان والاعراب ص ٩٠ - ٩١ (طبعة القاهرة ١٩٦١) .

(٥) عروبة مصر من قبائلها ص ٢٣ .

تحدثت عن وجود العرب الجنوبيين بمصر في ذلك العهد السحيق ، وعن وجود علاقات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البر والبحر. وهي تتحدث أيضا عن رجل اسمه «زيد بن زيد ايل» اعترف بوجود دين عليه وواجب هو توريد وتزويد بيوت آلهة مصر بالمرّ وقصب الطيب . ومن الكلمات التي وردت في هذه الوثيقة ، والتي يمكن بسهولة ردها إلى أصل عربي أو سامي الكلمات «دين» التي استعملت في نفس معناها العربي ، و «نفقس» التي تعني ثروته أو نفقته من الأصل الثلاثي «نقق» ، و «محرمهي» التي تعني الحرم : و «رثد» التي تعني رصد أو خصص .

وعلى أي حال فعن الطبيعي أن يكون قد نشب نوع من الاحتكاك في ذلك الوقت بين اللغتين العربية والمصرية ، وأن يكون قد حدث بينهما قدر ما من التبادل . ويبدو أن آثار كلتا اللغتين على الأخرى كانت قوية لدرجة أنها خلقت تشابها أو تقاربا بين اللغتين أدى ببعض اللغويين المحدثين أن يزعموا وجود قرابة بين اللغتين ، أو بين المجموعتين السامية والحامية (١) (من المجموعة السامية اللغة العربية ومن المجموعة الحامية اللغة المصرية القديمة). ولكن الحقيقة أن هذا التشابه سببه ما حدث من اختلاط بين الساميين والمصريين في العصور السحيقة . ومن حاول اكتشاف العلاقة بين اللغات السامية والحامية المستشرق المشهور أولبرى (دى لاسي) الذي كتب بحثا حاول فيه أن يبين أوجه الشبه بين العائلتين اللغويتين . (٢)

وقد كان نفوذ اللغة المصرية (أو اللغات المصرية إذا أردنا بهذا المصطلح مايشمل اللغة اليونانية التي كانت صاحبة نفوذ في مصر في تلك الفترة)

(١) انظر Irach Jehangier Sorabji : Elements of the Science of Language, Calcutta, 1932.

Characteristic of the Hamitic Languages.

(٢) انظر مقدمة كتاب

على اللغة العربية كبيراً من ناحية المفردات . فهناك كلمات مصرية كثيرة دخلت اللغة العربية وأصبحت ينظر إليها على أنها من اللغة الأدبية النموذجية . من هذه الكلمات ألفاظ نحو « قيس » التي وردت في القرآن الكريم ، و« صداع » ، و« مشط » التي وردت في الحديث النبوي : الناس سواسية كأسنان المشط ، وكلمة « بردي » التي وردت في شعر الأعشى .

وقد ذكر السيوطي (١) - إلى جانب ذلك - قائمة من الكلمات التي وردت في القرآن الكريم ولها - عن ما يزعم - أصل قبطي . ومما ذكره في هذا الخصوص قوله : وفي قوله تعالى ولات حين مناص ، أي فرار بالقبطية . وفي قوله تعالى بضاعة مزجاة أي قليلة بالقبطية . وحكى الكرمانى وغيره في قوله تعالى : فناداها من تحتها أي بطنها بالقبطية . وفي قوله تعالى في الملة الآخرة أي الأولى بالقبطية .. وواضح أن قائمة السيوطي لا يمكن التسليم بها مطلقاً ولذا فنحن لا نعطيها أي اعتبار .

وهناك قائمة أخرى كبيرة لكلمات ذات أصل يوناني ، ولكن أحداً لا يمكنه أن يقطع هل كان انتقال هذه الكلمات إلى اللغة العربية قد تم في مصر أو في سورية .

وخلاصة القول أن اللغة العربية كانت تتكلم في مصر في فترة ما قبل الإسلام بين أبناء الجاليات العربية وعلى ألسنة التجار العرب وأن تبادل حدث بين اللغتين المصرية والعربية ، أدى إلى ترك آثار من كلا الجانبين على الآخر ولكن دون أن يفقد أي منهما شخصيته .

(١) المتوكلى فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية ص ١٢ .

البابُ الأول

استيطان اللغة العربية في مصر

الفصل الأول

الصراع بين اللغتين

نظرة عامة

لقد ظهر الصراع الحقيقي بين اللغتين العربية والمصرية - والتي سنسميها منذ الآن باللغة القبطية (١) - بشكل واضح بعد الفتح الإسلامي لمصر . فقد حدثت إذ ذاك معركة كبيرة بين اللغتين انتهت بهزيمة كاملة للغة القبطية ونصر مبین للغة العربية . ولم يحدث هذا - بالطبع - دفعة واحدة ، وإنما خطوة بعد خطوة واستغرق فترة طويلة بالمقارنة بما حدث في أماكن أخرى من العالم الإسلامي .

وقد كانت هزيمة اللغة القبطية نتيجة لأسباب متعددة عملت كلها في صالح اللغة العربية ، كما أن تأخير هذه الهزيمة يمكن أن ينسب - من ناحية أخرى - إلى عقبات معينة عطلت التقدم السريع للغة العربية .

وقبل أن نناقش هذه الأسباب وتلك العقبات نحب أن نتمهد بحديث قصير عن العوامل الرئيسية التي تتحكم في صراع اللغات ، والتي يسرى مفعولها على أي لغتين يحدث احتكاك بينهما . هذه العوامل هي :

(١) القبط - وكذلك الأقباط - اسم أعطاه العرب للمصريين حتى من قبل الفتح الإسلامي ، وفي الحديث النبوي : استوصوا بالقبط خيراً . وقد اشتهر نوع من الشياح منذ الجاهلية باسم القبطية وجمعه العرب على « قباطي » .

و تذهب المراجع العربية القديمة في تفسير كلمة « قبط » مذهباً أسطورياً فتزعم أنها مشتقة من اسم ملك لمصر القديمة كان يدعى قبطيم بن مصر ايم بن مصر بن حام بن نوح .

أما المحدثون فذهب في تفسيرها آراء عدة منها :

١ - العامل السياسي .

٢ - العامل الاقتصادي .

٣ - العامل الديني .

٤ - عامل التفوق اللغوي (١) .

وقد لعبت هذه العوامل كلها دورا هاما في صالح اللغة العربية وتعاونت فيما بينها لتنهى حياة اللغة القبطية في مصر .

فإذا نحن نظرنا إلى العاملين السياسي والاقتصادي وجدنا أنهما كانا

== (١) أنها اشتقت من مدينة Koptos (قفط) .

(٢) أنها تحريف للكلمة Jacobites (اليعاقبة) . وبعض المراجع تطلق على المصريين

الأقباط الذين وجدوا أثناء الفتح اسم اليعاقبة ، وهم الذين غلب عليهم فيما بعد اسم الأقباط الأرثوذكسي ، وكانوا يكونون أغلبية في مصر .

(٣) أنها تحريف للكلمة اليونانية Koptoi التي كان يطلقها اليونانيون على المصريين لأنهم

كانوا يمحرون الختان على أولادهم .

(٤) وأقرب الآراء إلى الصحة أن الكلمة تحريف للاسم اليوناني للمصريين وهو Koptoi

ويبدو على كل حال أن هذه الكلمة استعملت أول ما استعملت وأريد بها غير المسلمين من المصريين ، من غير نظر إلى عقيدة معينة ، ثم يمرور الوقت أصبح المفظ طمأ على المسيحيين المصريين ، ولم يعد يتضمن أصحاب أي ديانة أخرى .

وتعتبر اللغة القبطية المرحلة الأخيرة لغة المصرية القديمة . وأهم ما يميزها عنها :

(أ) أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية .

(ب) أنها دخلتها مفردات وتعبيرات يونانية .

(ج) أنها أبدت بعض الأصوات في الالكلمات .

(د) أنها كتبت بالحروف الساكنة والمتحركة (الحركات) بعد أن كانت لا تذكر

الحروف المتحركة .

(هـ) أنها اشتملت على كلمات غير موجودة في المصرية القديمة وتركت كلمات موجودة في

المصرية القديمة .

(انظر : حضارة مصر في العصر القبطي لمعاد كامل ص ٦٩) .

(١) انظر J. Vandryes : Language ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

يعملان في صالح اللغة العربية . فمما لاشك فيه أن القوة كانت في أيدي العرب الذين بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ونشر الإسلام . وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها في دعم اللغة العربية ورفع شأنها في مصر . وقد كان من أهم الخطوات التنفيذية التي خطاها العرب ، والتي قوت جانبي الإسلام واللغة العربية في مصر ما يأتي :

- ١ - إحلال اللغة العربية محل اللغة اليونانية أو القبطية في الدواوين وفي المكاتب الرسمية .
- ٢ - تهجير عديد من القبائل العربية إلى مصر بقصد الإقامة الدائمة .
- ٣ - إحلال بعض المسلمين محل الأقباط في الوظائف الرسمية .
- ٤ - فرض أنواع مختلفة من الضرائب على الأقباط .

فإذا انتقلنا إلى العامل الديني ، نجد من الثابت أنه لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليعتنقوا الإسلام - إلا ما ندر - ولكننا نجد من الثابت أيضا أنه كانت هناك امتيازات معينة يتمتع بها المسلمون دون الأقباط مثل تفضيلهم عند شغل الوظائف القيادية بالإضافة إلى عامل الهيبة الذي يتمتع به المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة . وقد أغرى هذا وذاك مجموعة من الأقباط أن يعتنقوا الإسلام لينعموا بالمساواة في ظله . ومن ناحية أخرى فإننا نجد عدداً آخر يعتنقون الإسلام طواعية واختياراً مدفوعين بما يحتويه من تعاليم صادقة وروح جديدة . ومن البديهي أنه إذا اعتنق شخص الإسلام تحت حكم عربي فإنه سيحاول أن يحاكي المسلمين في كل تصرفاتهم ، سيذهب إلى المسجد ، وسيقرأ القرآن ، وسيصلي باللغة العربية . وباختصار سيعيش عيشة إسلامية كاملة .

وعامل الإسلام من الناحية اللغوية يعتبر ذا أهمية قصوى . وقد كان

من الواضح جدا ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره في كل الأقطار المفتوحة على السواء . كذلك كان من الواضح أن الأماكن النائية أو التي لم ينتشر فيها الإسلام بسرعة ظلت اللغة القبطية فيها حية لمدة أطول من غيرها . وقد كان اكتساب الأقباط الذين أسلموا للغة العربية أسرع من اكتساب أولئك الذين لم يسلموا لها . ولهذا فنحن نتفق مع المستشرق الشهير دى لاسي أوليري الذي علق أهمية كبيرة على هذا العامل بقوله « كان انتشار الإسلام بلاشك عاملا من عوامل إحلال اللغة العربية محل القبطية » (١) .

وقد حاول بعض الكتاب الذين عالجوا انتشار الإسلام في مصر أن يصلوا إلى نتيجة معينة هي أن الإسلام قد انتشر في مصر بالقوة . واعتمد هؤلاء فيما اعتمدوا - ومعظمهم من المستشرقين - على كتاب عنوانه « سير الآباء البطارقة » بقلم سويرس بن المقفع ، وهو مسيحي يعقوبي شغل منصب أسقف في كنيسة أشمونين نحو عام ٩٨٥ م . وهذا الكتاب - في الحقيقة - مليء بالوقائع المزورة والأكاذيب الفاضحة ، ولذا طعن في صحته كثير من العلماء في الشرق والغرب . ومن تشكك في كتابات هذا الرجل : ورأى ضرورة التثبت منها Nabia Abbot مؤلفة كتاب : The Kurrah Papyri وتنبهت هذه الكاتبة كذلك إلى حقيقة هامة بالنسبة لما كتب عن الأمويين إذ قالت مامعناه : إن معظم المراجع التي تمدنا بمعلومات عن الأمويين ونظام حكمهم كتبها أناس أعداء لهم مثل العباسيين والمسيحيين من أمثال سويرس بن المقفع (٢) . كذلك حذر Bell في مقاله The Administration of Egypt من الثقة الكبيرة في المصادر القبطية

(١) انظر : Notes on the Coptic Language ص ٢٤٤ مقال بمجلة Orientalia

عام ١٩٢٤ .

(٢) انظر ص ٥٧ .

حيث إن التعصب الديني قد لعب دورا كبيرا فيها . وذكر لنا مثالا من الأخطاء التي وقعت فيها المراجع القبطية وكشفت عنه أوراق البردي (١).

إننا لاننكر أنه وقعت هناك في تلك الفترة السحيقة بعض مصادمات بين المسلمين والأقباط ، ولكننا بسهولة نستطيع أن نردها إلى أسبابها الحقيقية . فبعض هذه المصادمات تم على أيدي المتطرفين من كلا الجانبين ، أو على أيدي العوام الذين تغلب عليهم حدة العاطفة دائما . وحتى في هذه المصادمات التي وقعت بين الحكام والأقباط فإننا نجد التفسير بسهولة ويسر . لقد كانت هذه المصادمات إما رد فعل لإثارات قام بها الأقباط - كما سنوضح فيما بعد - وإما عمليات اضطهاد وقتية قام بها بعض الحكام الظالمين (٢) ، وإما نتيجة للصراع الداخلي بين الأقباط وخاصة بين أبناء الطوائف المختلفة الذي سبب للحكومة متاعب جمّة . ومن أمثلة ذلك الصراع ما ذكره يحيى بن سعيد الأنطاكي (٣) في قوله : انقسم أهل مصر قسمين ، وكذلك أهل تنيس وتحزبوا حزبين ، وصار حزب من الكهنة والعلمانيين مع البطريك وحزب منهم عليه . وكان كل فريق منهم يصلون في كنيسة مفردة حتى كان الأب لا يكلم ابنه ولا المرأة تخاطب بعلمها .. ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان . وخرج جماعة من النصارى .. من أهل تنيس إلى الإخشيد ساعين به رافعين إليه . ثم ذكر أنه عقب هذه الوشاية أرسل الإخشيد من نهب إحدى الكنائس . كذلك صرح « ترتون » في كتابه :

(١) انظر ص ٢٨٤ :

(٢) من أمثلة ذلك ما ذكره ابن تفرى بردي من اشتهار سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس (١٦٩ هـ) بهدم كنائس مصر وأهلها ، وما ذكره سويرس بن المقفع عن عبد العزيز بن مروان أنه أمر بكسر جميع الصليان التي في مصر .

(٣) انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص ٧١٥ - ٧١٦ المنشور في :

Patrologia Orientalis, 1929-1932

« أهل الذمة في الإسلام » ، بأن كثيراً من الظلم الذي لحق الأقباط مصدره أنفسهم ، ومرده الغيرة الدينية بين أتباع الدين الواحد . وقد أتبع ذلك بنماذج كثيرة للصراع بين الطوائف المسيحية وإيقاع كل منها بالآخر . وذكر سويرس ابن المقفع أن شماساً اسمه بنيامين كان يتولى الدس للنصارى عند الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان ويطلعه على أسرارهم . وذكر في مكان آخر أنه في خلافة المعتصم بن هارون الرشيد حصلت وقعة بين رؤساء النصارى ، ودسوا بعضهم لبعض ، فأمر والى مصر على بن يحيى الأرمني بهدم البيع أو دفع ثلاثة آلاف دينار .

والشئ الذي نحب أن نبرزه هنا ونجعله واضحاً هو أن الأقباط قد تمتعوا في ظل الحكم الإسلامي بحرية دينية لم يجدوها من قبل ، وأنهم باثروا - سواء تحت الأمويين أو العباسيين - عباداتهم بحرية تامة . وكل ما كان يحرص عليه الحكام في ذلك الوقت هو أن تترجم لهم دروسهم القبطية وصلواتهم ليتأكدوا أنها لا تحمل أى هجوم أو إهانة للإسلام . وقد عرف ذلك بوجه خاص أيام الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذي كلف أحد الشامسة بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ، وكان يبحث عن كتب النصارى ويأمر بترجمتها له . وقد اعترف ترتون في كتابه « أهل الذمة في الإسلام » ، بأن المسلمين بمصر منذ البداية اتجهوا إلى عدم احتلال أى كنيسة ، وعدم التدخل في شئون الأقباط ، وبأن عمرو بن العاص نفسه لم يمد يده إلى أى شئ من أملاك الكنائس . وذكر أن أول كنيسة بنيت بالفسطاط أيام المسلمين كانت في ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٨ هـ) وأنه لما أنشأ عبد العزيز بن مروان حلوان سمح بإقامة كنيسة هناك ، ثم بنيت أخرى ، وبني ديران .

ومن الثابت تاريخياً أن محمد بن طغج الإخشيدى - على عكس ما أشيع عنه - كان يحسن معاملة المسيحيين ، وكان يشارك في أعيادهم ويحضر

احتفالاتهم الدينية . وقد ذكر المسعودى وصفاً لأحد هذه الاحتفالات فقال :
« وقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طنج أمير
مصر في قصره المعروف بالمختار في جزيرة الروضة .. وقد أمر فأسرج في
جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل إلى جانب ما أسرج أهل مصر
من المشاعل والشمع .. » .

وضرب لتاسويرس بن المقفع أمثلة للاضطهاد الديني الذي عاناه المصريون
تحت حكم الرومان ، ومنها قوله عن شخص يدعى « أغاتون » : « وكان
قساً في الكنيسة ، وهو من أهل مريوط . كان في زمن هرقل يتزرى بزى
العلمانيين في مدينة الإسكندرية ، ويطوف في الليل يثبت الأرتذكسين
المخضفين ويقضى حوائجهم .. وإذا كان النهار حمل على كتفه قفة فيها آلات
النجارين ، ويظهر أنه نجار حتى لا يعترضوه المخالفون (كذا) » .

وقبل أن نترك هذا العامل نجب أن نشير إشارة خاطفة إلى أن كثيراً
مما ألصقه المستشرقون بالإسلام من اتهامات في هذا الخصوص مرجعه سوء
قراءتهم أو التواء فهمهم للنصوص العربية وترجمتهم الخاطئة للدولها .
وأكتفي هنا بأن أذكر اسم المستشرق الشهير B. Evetts محقق كتاب سويرس
ابن المقفع السابق الإشارة إليه . لقد قرأ عبارة ابن المقفع « فأحصى جميع
الرهبان .. وجعل عليهم جزية » - قرأها : فأحصى وترجمها إلى
« mutilated » ورتب على ذلك نتائج كثيرة (١) .

فإذا نحن انتقلنا إلى العامل الأخير ، نجد أن تفوق أي لغة وتمتعها بالهوية
يرجع إلى قيمتها الذاتية ، وفي حالة اللغة العربية نجد قيمتها عظيمة ، وتفوق
إلى حد كبير القيمة الذاتية للغة القبطية في ذلك الوقت . فهي من ناحية لغة
الحكام ، ومن ناحية أخرى لغة النبي . وهي بالإضافة إلى ذلك لغة حضارة
عظيمة وثقافة تفوق أختها اللقبطية . ويشير « فندريس » في كتابه « اللغة »

(١) انظر ١/١٠١

إلى التفوق الذاتي الذي تتمتع به بعض اللغات، ومن بينها اللغة العربية، بقوله: « والقدرة على الانتشار التي نشاهدها في بعض اللغات الهندية الأوربية أو السامية - كاللغة العربية مثلاً- ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة ، ولكن القيمة الذاتية للغة لها في ذلك نصيب » .

ويمكننا أن نقدر الفجوة بين اللغتين القبطية والعربية في هذا الصدد إذا أخذنا في الاعتبار الحقيقتين التاليتين :

أولاً : أن اللغة العربية كانت قد انتشرت في كثير من أنحاء العالم وتمثلت ثقافات وحضارات كثيرة مما أعطاها ميزة ضخمة وقيمة كبيرة . وبمرور الزمن ازداد هذا العامل قوة ، فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع القبطية حتى كانت قد أصبحت لغة ثقافة عالية .

ثانياً : أن اللغة القبطية في فترة احتكاكها باللغة العربية كانت في موقف ضعيف بشكل واضح . فقبل ذلك بمدة طويلة كانت اللغة القبطية قد وقعت فريسة للغة اليونانية التي أصبحت فيما بعد لغة الكتابة . وهذا يعني أن الأعمال الكتابية الهامة كانت تكتب باليونانية لا القبطية ، ويعنى بالتالى إضعاف اللغة القبطية الدرجة عظيمة .

ويقال كذلك إن لغة الثقافة في مصر لم تكن القبطية ، بل كانت السريانية التي كانت تستعمل بخاصة في جامعة الإسكندرية العتيقة ، والتي صارت مألوفة للدارسين بعد هجرة بعض الأساتذة السوريين إلى مصر وعملهم على نشر ثقافتهم .

ويقال أيضاً إن اللغة القبطية لم تكن وحدها لغة الحديث في بعض أجزاء من مصر بما فيها الإسكندرية ، وإنما كانت في صراع دائم مع اللغة اليونانية على ذلك (١) . بل أكثر من هذا يقال إن اللغة القبطية كانت لغة الحديث

(١) عبد المسيح : الأساس المتين في ضبط لغة المصريين ص ٩٠ .

لعامة الشعب وغير المثقفين فقط ، وإن الطبقات الأرستقراطية كانت تفضل الحديث باللغة اليونانية (١) .

كذلك من الثابت أن الأقباط في ذلك الوقت لم يكونوا غيورين بدرجة كبيرة على لغتهم حتى إنهم تخلوا عن أحرفهم الهجائية في القرن الرابع أو الخامس الميلادي واختاروا أبجدية جديدة استعير معظمها من الأحرف اليونانية وأضيف إليها سبعة رموز من الكتابة الديموتيقية لتعبر عن أصوات لا وجود لها في اللغة اليونانية (٢) .

ومن أجل هذا حين جاءت حركة الترجمة النشيطة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وبلغت قمته ، لم يجد الباحثون شيئاً ذا بال يستحق الترجمة من القبطية إلا ما ندر . ولا توجد إشارات إلى ترجمات من القبطية إلى العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، اللهم إلا ما يتعاق بالديانة المسيحية . وربما كانت الترجمة الوحيدة التي وصلنا نصها هي تلك التي قام بها سويرس بن المقفع وأصحابه في القرن الرابع الهجري ، والتي أطلقوا عليها اسم : « سير الآباء البطارقة » . وتأخذ دائرة المعارف الإسلامية (مادة قبط) برأى Casanova أن الترجمة العربية للأعمال القبطية لم تتم إلا في أيام الفاطميين . وتذكر الدائرة أن الأدب القبطي لم يكن أدباً راقياً ، وأنه عاش في شكل ترجمات معظمها من اليونانية ، مثل ترجمة العهد القديم والعهد الجديد وقصص حياة الأولياء والقديسين .

فإذا نحن أردنا أن نحلل هذه العوامل ، ونرتب تلك الأحداث ترتيباً

(١) انظر جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ٣٠٤ ، وانظر أيضاً : بهي الدين زيان : حياة النثر في مصر إلى القرن الرابع الهجري (رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة) ص ١٠١ - ١٠٢ ، وعبد الرزاق حميدة : الأدب العربي في مصر ص ١٧ .

(٢) عبد المسيح : الأساس المتين ص ٥ - ٩ وانظر أيضاً ص ٧٦ من A.C. Moorhouse

D. Diringer : The Alphabet : The Triumph of this Alphabet ص ٤٧٠ من

الفصل الثاني

المرحلة الأولى من الصراع

مرحلة المناوشة

تحدد هذه المرحلة بفترة ما بين الفتح الإسلامي (سنة ٢٠ هـ) ونهاية القرن الأول الهجري (٧١٨ م) . وفيها وجد تبادل بين اللغتين العربية والقبطية وتأثير من كلا الجانبين على الآخر . وعلى الرغم من تأييد اللغة العربية بالعرب الفاتحين ، فقد كان ميزان القوى متعادلا لمعظم الوقت ، ولم تتمكن أى من اللغتين من إحراز نصر يذكر على الأخرى . وكانت الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة ما يأتي :

١ - حسن معاملة العرب للمصريين . فعلى عكس ما ذكره المؤرخون الأقباط تؤكد أوراق البردي - التي يرجع عهدها إلى الفتح الإسلامي والتي كشفت حديثاً - حسن معاملة العرب للأقباط ومسلكتهم المشرف حيال أهل الذمة . ولدينا وثيقتان بهذا كصفهما البروفسر جروهمان يرجع تاريخهما إلى عام ٢٢ هـ = ٦٤٢ م . وإحدى الوثيقتين مكتوبة باللغة اليونانية وقد كتبها الشماس يوحنا مسجل العقود وألحق بها نص آخر باللغة العربية . ويقول النص العربي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أخذه عبد الله بن جابر وزملاؤه المحاربون من النعاج للذبيح في هيراكليوبولس . لقد أخذنا من أحد وكلاء تيودوراكس النجل الثاني لآبا قيرص ومن نائب خريستوفورس أكبر أنجال آبا قيرص خمسين نعجة للذبيح ، وخمسة عشرة نعجة أخرى . وقد أعطاهم لإطعام رجال مراكبه وفرسانه وقوات مشاته تحرر في شهر جمادى

الأولى سنة ٧٧٠ وكتبه ابن حنبل ، وجاء في ظهر الورقة ما نصه : « شهادة بتسليم التعاج للمجاريين ولغيرهم ممن قدموا البلاد وهذا خصما (كذا) عن جزية التوقيت الأول » . وقد علق جزوهما على اللصين بقوله : « إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب منتصر » . وقد كتب ميخائيل السورى بطريرك البعقوبيين في أنطاكية يقول : « إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء اسماعيل لينقذنا بواسطة من أيدي اليونانيين .. وقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشروهم ، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا . هذا من جهة . ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا (١) » . ووصف الأسقف المؤرخ سويرس بن المقفع شعورهم بقوله : « كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على ألبان أمهاتهم » . ويعلق الدكتور جاك تاجر على وصف سويرس بن المقفع بقوله : « وسويرس على حق في وصفه لأن الأقباط لم يعاملوا هذه المعاملة اللينة من مدة طويلة . أضف إلى ذلك أن العرب أثناء ولاية عمرو لم يحاولوا أن يضغطوا على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم (٢) » .

٢ - استمرار استعمال اللغة اليونانية (أو القبطية) بوصفها لغة رسمية حتى عام ٨٧٧ = ٧٠٦ م عندما أصدر والى مصر إذ ذاك وهو عبد الله بن عبد الملك بن مروان أوامره بإحلال العربية محلها (٣) . وفي التوعزل رئيس الديوان القبطى وكان اسمه أثناسيوس وحل محله ابن يربوع الفرارى الحمصى . وتشير المصادر العربية إلى أن اللغة الرسمية إذ ذاك كانت القبطية وحدها ، في حين أن الباحثين الأوربيين يرون أنها كانت اليونانية فقط . والذي يبدو لى أن كلتا اللغتين كانت مستعملة في الكتابة في ذلك الوقت ،

(١) جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ١٨ ، وانظر أيضاً ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣ وانظر أمثلة أخرى في (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول)

لشكري فيصل ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) المقرئى : الخطوط ٩٨/١ ، والولاية لكتلى ص ٥٨ - ٥٩ .

اليونانية بوصفها اللغة الرسمية في الدواوين والمصالح الحكومية ، والقبطية بوصفها لغة العامة وكانت تكتب بها عقودهم وخطاباتهم ووثائقهم . ويتضح من بعض الوثائق المكتوبة بين سنتي ٥٦ هـ = ٦٧٥ م و ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م أن كلتا اللغتين كانت تستعمل جنباً إلى جنب ، وأحياناً مع اللغة العربية . والنسبة الكبرى في مجموعة من هذه الوثائق كانت باللغة القبطية (٨٥ ٪ بالقبطية و ٩ ٪ باليونانية و ٦ ٪ بالعربية (١)) ولكن هناك وثائق أخرى كتبت باليونانية فقط . ولم يكن من الممكن - بالطبع - أن يتم تعريب الدواوين بين يوم وليلة ، ولهذا فنحن نقترح السنوات العشر الأولى من القرن الثاني الهجري أو نحوها حينما أصبحت اللغة العربية لغة المصالح الحكومية إما بالكلية ، أو كلغة أولى في الوثائق ذات اللغتين . ومع ذلك فقد عثر على وثيقة من وثائق البردي كتبت باللغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخها إلى عام ٢٢ هـ (٢) ، أي نحو ٦٥ عاماً قبل المحاولة الرسمية لتعريب الدواوين في مصر . ومن تلك الوثيقة يمكننا أن نقول إن استعمال اللغة العربية في الوثائق الرسمية (ولكن كلغة ثانية) كان قد بدأ إن لم يكن مع الفتح الإسلامي فبعده بقليل . وأول وثيقة كتبت كاملة باللغة العربية يرجع تاريخها إلى عام ٩٠ هـ = ٧٠٩ م .

٣ - أما العامل الثالث من عوامل التعادل بين اللغتين العربية والقبطية خلال القرن الأول الهجري فيرجع إلى وضع الأقباط الوطني في الدولة . فقد حل الأقباط في إدارة البلاد محل الروم الذين غادروا مصر ، والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها ، كما ظلوا في وظائفهم العامة كما كانوا قبل الفتح سواء بسواء ، فكان منهم حكام المحافظات ورؤساء الدواوين وصغار الموظفين . ومن هؤلاء عامل يدعى ميناوس كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من البلاد واستبقاه المسلمون في عمله . وهناك آخر اسمه شنودة وكلت إليه

(١) انظر ص ٨ من : P.E. Kahle : Bals'izah (لندن ١٩٤٥) .

(٢) سبق نص الوثيقة .

إلى ١٠١ هـ = ٧١٩ م)، وأمره بإحلال المسلمين أو العرب محل الأقباط .
ونتيجة لذلك « نزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها (١) .
ولكن يبدو - على أي حال - أن هذه الحركة لم تكن شاملة في أي عصر
من عصور التاريخ بدليل أننا نجد من بين أسماء محصلي الضرائب في القرن
الثالث الهجري أسماء قبطية من مثل مينا بن شنودة وسويرس بن زكريا
ويوحنا بن ميناء . ومن الثابت كذلك أن رؤساء المالية ظلوا أقباطاً طوال
العصر الأموي .

٤ - كان عدد العرب قليلاً طوال هذا القرن إذا قيس بعدد السكان
الأصليين . فقد كان عدد قوات الجيش العربي الفاتح بأمداده المتعددة يتراوح
بين اثني عشر ألفاً وستة عشر ألفاً يعيشون على العطاء الذي تصرفه الحكومة
لهم . وبعد الفتح نظمت لهم خطط في الفسطاط ونزلت كل قبيلة خطة ، أي
جهة معينة أو قسماً من أقسامها ، وعرف كل قسم باسم القبيلة أو الجماعة
التي نزلت فيه . ولم يخرج عن الفسطاط من جيوش الفتح إلا عدد قليل من
القبائل مثل همدان التي نزلت في الحيزة ، وعدد آخر نزل بالإسكندرية .
وفي خلافة معاوية كان بالفسطاط أربعون ألف عربي ، وفي الإسكندرية
اثنا عشر ألفاً زيدت إلى سبعة وعشرين ألفاً بعد شكوى قائدها من قلة
العدد . ومع أننا نعرف بأن أرقام هؤلاء الجنود لا تدل على عدد العرب
الحقيقيين في مصر لأن المصادر التاريخية ربما أغفلت ذكر جماعات عربية
استوطنت مصر أيام الفتح غير هؤلاء الجنود ، وذلك مثل قبيلة « بلي » التي
نقلت بعض بطونها من الشام إلى مصر في أيام عمر بن الخطاب وأقامت
بالصعيد (٢) ، فإنه من الواضح أنه حتى مع مضاعفة التقدير فإن عدد العرب

(١) كان القطر المصري مقسماً إلى أجزاء كل منها يسمى « كورة » ، وعلى رأسها كان صاحب
الكورة . ومساعدته كان يحمل اسماً يونانياً هو « جسطل » أو « مازوت » ، ويذكر الدكتور مراد
كامل أن كلمة « مازوت » لا تيشية أو يونانية الأصل وأن معناها « قاص » . (ص ٧١) .

(٢) انظر البيان والإعراب ص ٩٧ .

لن يبلغ في أى فترة من فترات هذا القرن عشر معشار عدد السكان الأصليين الذين يزيدون في أقل تقدير على سبعة ملايين نسمة (١) .

وبالإضافة إلى القلة العددية كانت هناك أوامر مشددة على الجنود ألا يستكينوا إلى الراحة ، وأن يظلوا في وضع استعداد دائم ، أو على حد تعبير عمرو بن العاص « واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع (٢) . كذلك أمروا ألا ينزلوا الريف إلا في وقت الربيع لينالوا من « خيره ولبنه وخرافه وصيده » وليسمنوا خيولهم ويطعموها . ومن تحذيرات عمرو في هذا الشأن : « ولا أعلمن أحداً قد أسمن نفسه وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك » وقد روى ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب أنه أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد ويسألهم أن يخبروا الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون . وروى ابن وهب

(١) تختلف المراجع في تقدير عدد المصريين الذين كانوا بمصر أيام الفتح وليس هناك أى دليل على ترجيح أحد الآراء على الآخر . وقد قدرهم جرجس فيلوثاوس بثلاثين مليوناً (اللقفة القبطية سنة ١٩١٦ ص ١٢) وقد تمهم دائرة المعارف الإسلامية بمحوالى أربعة وعشرين مليوناً (ص ٩٩٧ مادة Kibt) . وإذا أردنا أن نقدر عددهم بناء على مقدار الجزية الذى جمعه عمرو بن العاص صادفتنا صعوبة أخرى هى أن المراجع تختلف في هذا المقدار على الوجه الآتى :

(أ) ذكر البلاذرى في فتوح البلدان أن خراج مصر زمن الفتح كان ألف دينار أى أن من وجبت عليهم الجزية (وهم من عدا الأطفال والنساء والعجائز) كان عددهم مليون نسمة ، بواقع دينارين فقط الواحد .

(ب) أما ابن عبد الحكم في فتوح مصر فقد قدر عدد من وجبت عليهم الجزية بستة ملايين نسمة وكذلك فعل السيوطى في حسن المحاضرة .

(ج) ذكر المقرئى في الخلط (١ / ١٣٦ ط لبنان) أن عدد من دفعوا الجزية كانوا

ثمانية ملايين شخص .

(٢) انظر حسن المحاضرة (ط الشرفية) ١ / ٦٧ .

أن شريك بن سمي الغنفي أتى عمرو بن العاص فقال : إنكم لا تعطوننا ما يكفيننا ، أفتأذن لي في الزرع ؟ قال عمرو : ما أقدر على ذلك . فزرع شريك من غير أمر عمرو فكتب عمرو إلى عمر يخبره بذلك فكتب إليه أن أبعث إلى به فبعث به إليه فقال له عمر : « لأجعلنك نكالا لمن خلفك » . وحيث كان معظم العرب يعملون كأفراد في القوات المسلحة وينظر إليهم على أنهم غزاة فاتحون فإننا لا نتوقع قيام علاقات طيبة - لبعض الوقت - بينهم وبين الأقباط . أما العرب الذين لم يقدوا بوصفهم جنداً عاملين فكانوا قلة ، وتفرقوا في البلاد ، فتزل بعض من « لحم » و « جذام » بالحوف الشرقي (١) ، وبعض من « بلي » بسوهاج واستقرت جهينة في الصعيد ، وبعضهم نرح إلى الصحراء . ومن أشهر المناطق التي سكنتها القبائل الأولى كذلك الفيوم وبنها وبوصير وسخا وإتريب ومنوف وسمنود وطحا .

٥ - في النصف الثاني من هذا القرن فرضت ضريبة على الرهبان لأول مرة ، وقد فرضها عبد العزيز بن مروان في عام ٦٥ هـ = ٦٨٥ م وقدرها دينار عن كل فرد بحجة أنه ليس من العدل أن تدفع الطبقات الفقيرة الضرائب ويعني منها الرهبان والمطارنة والبطاركة الذين يملكون ثروات ضخمة . واستناداً إلى ما ذكره المؤرخ القبطي سويرس بن المقفع ، فرض الأصمغ ابن عبد العزيز بن مروان (توفي عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م) - الذي كان نائباً عن والده عبد العزيز بن مروان في حكم مصر خلال فترة ولايته - ضرائب على الرهبان الأقباط وأراضيهم ، وقبل عهده لم تكن هناك أي ضرائب مفروضة عليهم (٢) .

(١) يشمل الحوف الشرقي القرى الواقعة على الجانب الشرقي من الوجه البحري وبلبيس وكان يشمل كل البلاد النابذة الآن لمحافظة القليوبية والشرقية ، وما يقع إلى شرق مركز السنبلوين وأجار بلاد مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية .

(٢) يبدو أن الضريبة الأولى التي فرضها عبد العزيز بن مروان على الرهبان هي هذه الضريبة التي فرضها الأصمغ . أما إذا اختلفت فلعل الأولى كانت تقابل ما يسمى بالجزية أو ضريبة .

كذلك قال سويرس بن المقفع إن الأصبغ أمر حكام المحافظات وموظفيها في كثير من مدن مصر العليا والسفلى أن يعتنقوا الإسلام أو يغادروا وظائفهم . وقد كان من نتائج هذه السياسة ذات الشقين أن دخل كثيرون دين الإسلام ، منهم « بيتر » حاكم الصعيد ، وأخوه « تيودور » حاكم مريوط وعدد لا يحصى من القسس وعامة الشعب .

ومن الطبيعي ألا يظهر أثر هذا العامل في خلال تلك الفترة وأن تظهر نتائجه في المرحلة التالية .

وباستثناء هذا المثال الواحد لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليكونوا مسلمين ، وإنما كان عليهم أن يدفعوا نوعاً أو أنواعاً معينة من الضرائب (١) .

= الروموس ، أما الثانية فكانت تقابل ما يسمى بالخراج أو ضريبة الأرض . وبقول سويرس « وقبل عهده لم تكن هناك أي ضرائب مفروضة عليهم » في حاجة إلى نظر .

(١) كان على الأقباط أن يدفعوا نوعين من الضرائب :

١ - الجزية أو ما يسمى بضريبة الروموس . وتذكر المصادر العربية أن مقدارها ديناران في العام على كل شخص باستثناء النساء والأطفال والشيخوخ . ولكن أوراق البردى تثبت أنها كانت تقدر على حسب إروة الشخص وليست ثابتة . ويبدو أن ما ذكره المؤرخون العرب عن هذا المقدار ما هو إلا متوسط ما يؤديه دافعوا الضرائب ليس إلا . ومعنى هذا أن الجزية المفروضة على كل قرية كانت تؤخذ بضر ب عدد الروموس في اثنين ، ثم يقدم الناتج على أبناء القرية بحسب إروة كل فرد . وقد ثبت من قوائم الضرائب المكتوبة باللغة اليونانية والتي يرجع تاريخها إلى القرن الأول للهجرة أنه كانت تحصل أحياناً مبالغ أقل من دينارين بل أقل من دينار وقد يصل الرقم المحصل إلى أربعة دنائير إذا كان الشخص من ذوى الثراء .

٢ - ضريبة الأرض ، وكانت تختلف من وقت إلى وقت تبعاً لدرجة الفيضان السنوي من ناحية ، ولسياسة كل حاكم من ناحية أخرى (انظر النجوم الزاهرة ٢٤/١ ، وفتح العرب لمصر ابتداء من ٣٩٢ و ٣٩٥ ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١٨ و ١١٩ (ليدن ١٨٩١) ، و دائرة المعارف الإسلامية مادة Egypt ص ١٦ ، و Lane Poole في A History of Egypt ص ١٩ و ٢٠ و ٤٣ ، وابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٨ و ٨٩ و ١٠٧ و ١٠٨ ، والمقرئزي : إغاثة الأمة ١٣ - ١٨ ، والخطط للمقرئزي ٩٨/١ و ٩٩ وشكري فيصل ص ١٢٤ .

٦ - ويجب أن نذكر اسم عمر بن عبد العزيز مرة أخرى في هذه المرحلة لأنه كان أول من ألغى ضريبة الرؤوس على الأقباط إذا اعتنقوا الإسلام ورفض في ذلك أن يأخذ بمشورة من نصحوه باستمرار تحصيل الجزية نظراً لازدياد من يعتنقون الإسلام . وقد رد عليهم بقولته الشهيرة : « إن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جانياً . واعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه . » وقد أدت هذه السياسة إلى إغراء بعض الأقباط بالدخول في الإسلام . ولكن مرة ثانية : لم يظهر أثر هذا العامل خلال هذه المرحلة .

٧ - أن حركات الدخول في الإسلام سارت بطيئة في أنحاء البلاد خلال هذا القرن . ولم تحدث موجات ذات بال ماعدا تلك التي سبقت الإشارة إليها ، وماعدا موجات الدخول في الإسلام التي قام بها العرب الجاهليون المقيمون بمصر . وقد أشار المؤرخون بالنسبة للقسم الأخير إلى أن عدداً كبيراً من هؤلاء العرب لم يترددوا في تأييد إخوانهم الفاتحين ، وفي تعويض عمرو ابن العاص عن خسائره خلال الفترة الأولى من الصراع .

وكانت النتيجة الحتمية لتلك العوامل المتضاربة أن حققت اللغة العربية بعض النصر على حساب اللغة القبطية التي فقدت بدورها شيئاً من قوتها في صراعها من أجل الحياة . وإن بقاء اللغتين جنباً إلى جنب ، وفشل أيهما في القضاء على الأخرى ، لا يعنى أنهما كانتا في حالة ركود ، فمن المتوقع أن يكون قد حدث بينهما نوع من التأثير المتبادل ، ومن غير المشكوك فيه أن تكون كل لغة قد تركت شيئاً من معالمها على الأخرى .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الصراع

مرحلة التقدم

أما المرحلة الثانية فمن الممكن أن تحدد نهايتها بعام ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م . والعلامة المميزة لهذه المرحلة أنه بنهايتها كان ميزان القوى قد اختل لصالح اللغة العربية التي حققت نجاحاً كبيراً . أما الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة فهي كما يلي :

١ - ازدياد حركة التعريب للدولة ، وإحلال العرب أو المسلمين محل الأقباط . وقد أدت هذه الحركة بالأقباط إلى أن يهملوا تدريجياً دراسة اللغتين اليونانية والقبطية . وأن يسرعوا في تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل ، أو ليحتفظوا بما في أيديهم من وظائف . ولم تؤد حركة التعريب إلى أى تدمير أو احتجاج من الأقباط : إذ كان التعريب انتقالاً من لغة أجنبية هي اليونانية إلى لغة أجنبية أخرى هي العربية . وكما تعلم الأقباط اليونانية واستعملوها في الدواوين على الرغم من أنها ليست لغتهم ، لماذا لا يتعلمون العربية ويستعملونها في الدواوين بدلا منها وهي لغة المنتصرين ، ولغة سوف تفتح أمامهم أبواب الرزق ؟

وليس هذا فحسب ، فإن بعض الأقباط لم يقنع بتعلمه اللغة العربية ، وأراد أن يذهب خطوة أبعد في التقرب إلى الحكام فاعتنق الإسلام ، ولم يكتف بعضهم بالإسلام فحاول أن يتسبب إلى إحدى القبائل العربية على ذلك يشفع له عند الناس ويجعله ينعم بالمساواة بينهم .

٢ - إحكام الحصار على الأقباط لمنعهم من الفرار من دفع الجزية بأى وسيلة من الوسائل عدا اختيار الإسلام ، وإحباط مساعيهم في التهرب من دفع التزاماتهم المالية . وقد لجأ الأقباط إلى حيل متعددة قوبلت بردود أفعال مناسبة :

(أ) فقد زاد عدد الأقباط الذين ادعوا حقهم في الإعفاء من دفع الجزية بحجة ترهبهم أو انتسابهم إلى الكنيسة ، مما أدى بالوالى إلى فرض جزية مقدارها دينار على كل نسمة ، كما قام بإحصاء جميع الرهبان في كل الكور وأمر ألا يرهب أحد بعدهم .

(ب) ولجأ بعضهم إلى تغيير محال إقامتهم بعد أن انتهت السلطات من تعداد السكان ، وأقاموا في نواح أخرى لم تدرج أسماؤهم في قوائم الضرائب فيها ، مما أدى بالوالى أن يصدر أوامره المشددة بعدم السماح لأحد بالسفر أو الانتقال من قرية إلى قرية بدون أن يكون حاملاً لحواز سفر ، وتغريم من يضبط بدون مبلغ خمسة دنانير . كذلك صدرت الأوامر بالألا يسمح لقافلة بالانتقال من مكان إلى آخر ما لم تكن حاملة لإذن كتابى وإلا تعرضت للمصادرة .

(ج) كذلك لجأ بعض المزارعين إلى هجر أراضيهم وقراهم بحجة عدم استطاعتهم الوفاء بالتزاماتهم المالية (١) ، فاضطرت الحكومة

(١) تلقى أوراق بردى « كوم أشقار » شاعاً من النور على هذه الحركة التى كان محورها الزراع ، وكان الوالى يأمر بإعادتهم إلى قراهم الأصلية . فراه يكتب إلى صاحب « أشقوة » أنه علم بوجود جالية في أرضه ويطلب منه أن يردها إلى أرضها الأصلية . ونراه يرسل مندوبين للنظر في حركة الحرب ، ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم ، وأن يرسل معهم رجلاً ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا في حضرتهم بكتابة أسماء المزارعين والقاهم ، ولإيبتوا أيضاً من أين هربوا وإلى أى جهة ذهبوا . (انظر : د . سيدة إسمايل كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ٢٢٨) .

إلى تنبع هؤلاء المهاجرين ووردهم ، أو إلى تهجير بعض القبائل العربية وإحلالها محلهم كما سنتحدث فيما بعد .

(د) وقام بعضهم بثورات دموية قوبلت بشدة ، وأخمدت بقسوة ، ومن ذلك ثورات أعوام ١٠٧ و ١٢١ و ١٣٢ و ١٣٥ و ١٥٠ و ١٥٦ هجرية (١).

٣ - تتابع هجرات القبائل العربية إلى مصر لأسباب مختلفة بعضها سياسي وبعضها ديني وبعضها اقتصادي . وقد حدث هذا بشكل مطرد خلال تلك الفترة . وأحصى ماك ميكل ما أمكن التعرف عليه من القبائل التي وفدت إلى مصر في الفترة ما بين سنة ١٣٣ هـ إلى ٢٤٢ هـ فوجدها تبلغ ثلاثا وثلاثين قبيلة متفرقة في فروع مختلفة . ويمكن التمثيل لهذه الهجرات بما يأتي :

(أ) قبيلة لحم التي رحل بعضها مع الفاتحين إلى مصر ثم دخلت قبائل كثيرة منهم في القرنين السابع والثامن ، وحطت رحالها في جهات الإسكندرية ، وقد كان منهم أمير حكم مصر عام ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . وقد كان تعيين وال من قبيلة معينة من أكبر الفرص للمهاجرة فقد كان يرافقه مالا يقل عن عشرين ألف متانل من قبيلته .

(ب) قيس عيلان التي رحل بعض منها إلى مصر عام ١٠٩ هـ = ٧٢٧ م بأعداد كبيرة تصل إلى ثلاثة آلاف شخص في رواية ، وخمسة آلاف في رواية أخرى . ونزلوا بالحواف الشرقي (٢) ، وصرف لهم الوالي

(١) ذكر المقريزي أن أولى ثورات انقباط حدثت عام ١٠٧ هـ ، ولكن أوراق البردي تتحدث عن ثورة في الصعيد أسبق من ذلك حدثت في عام ٨٩٤ = ٧١٢ م .

(٢) يرى المقريزي أن قليلا من أفراد قيس كانوا قد أتوا مصر قبل تهجير من هجروا في عهد الوليد بن رفاعة الفهسي . ويخالف ماك ميكل في ذلك لأنه يرى أن ثلاثة من الحكام القيسيين حكموا مصر قبل الوليد بين سنتي ٩١ و ١٠٩ هـ ، منهم اثنان من فهم وواحد من عيس . ولا يمكن أن يحكموا من غير أن يكون قد صاحبهم عدد كبير من قبائلهم .

مرتبات من أموال الصدقة والعشور ، وأمرهم بالزرع وتربية الإبل والخيول . وكان يتحصل للرجل منهم في الشهر نحو عشرة دنانير ، ولم يكن عليهم مؤنة في علف إبلهم ولا خيولهم بلجودة مرعاهم . وتضاعف عددهم فيما بعد بشكل ملحوظ ، فسرعان ما تسامع باقي أفراد القبيلة بنحسب الأرض وكثرة خيراتها فهاجر عدد آخر يبلغ خمسمائة أسرة ، ثم بعد سنة أتى نحو خمسمائة أسرة أخرى ، وهكذا . وقد حقق تهجير هذه القبيلة أهدافاً كثيرة أهمها :

(أ) الإقامة في منطقة الحوف الشرقى التي قام أهلها الأقباط بثورتهم الأولى عام ١٠٧ هـ حتى يكونوا عامل تعادل في المنطقة .

(ب) محاولة عمل تعادل من نوع آخر يتم هذه المرة بين القبائل السبئية والعدنانية . فقبل هذه الهجرة لم يكن بأرض مصر من قيس إلا عدد قليل من فهم وعدوان .

(ج) المساعدة على انتشار الإسلام : إذ سكنت موقعا أهلا بالسكان الأقباط . على عكس ما حدث من قبل لمعظم القبائل العربية التي لم تختلط بسكان الريف والقرى إلا قليلا ، مما جعل انتشار الإسلام في القرن الأول محدود الأثر .

(د) حلها في الزراعة محل المزارعين الذين تركوا أرضهم : ورحلوا إلى أماكن أخرى ، فكان جزء من مهمتهم ملء الفراغ الذي تركه السكان الأصليون .

وهكذا كان تهجير هذه القبيلة بأعداد ضخمة - بالإضافة إلى موقع سكنها - عاملا كبيرا من العوامل التي أدت إلى سرعة إدماج العنصر العربي في العنصر المصري ، وأصبحنا نرى في الوجهين البحري والقبلي عرباً تزوجوا من نساء قبليات اعتنقن الإسلام . كما أصبحنا نرى علاقات اجتماعية طيبة

بين العرب وغيرهم . وهذا ولاشك أعان على انتشار الإسلام بشكل واسع وبسرعة ملحوظة .

٤- ازدياد عدد الداخلين في الإسلام فرادى وجماعات نتيجة لأسباب كثيرة ، أهمها :

(أ) قوة الحركة الدينية ونشاط الدراسة الإسلامية والعربية في مصر في ذلك الوقت ، وامتلاء مصر منذ أواخر القرن الأول بعلماء الدين والقراء والمفسرين والمحدثين ، على نحو ما سنفصله في الفصل الخامس من هذا الباب .

(ب) كان هناك حركة فردية بين المفكرين في تقبل الإسلام . فقد استجاب له كثيرون من الذين كانوا يحسون أعمق القلق في حياة المسيحية ويعانون أقصى الآلام حين يرون أمام أعينهم تطاحن فرقها وتنازع مذاهبها . وقد كتب بتلر في شأن هذا اللون من الناس يقول : « وأما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوعده وطمأنينته وبساطته (١) » .

(ج) الإغراء المادى المتمثل في الإعفاء من الجزية كما سبق أن أشرنا . وكان هذا الإغراء متمثلاً بشكل أوضح في المدن ، وبين أرباب الوظائف ، وأصحاب المهن غير الزراعية ، لأن معنى إعفائه من الجزية إعفاؤه الكامل من دفع أى ضريبة للحكومة . أما إعفاء الفلاح من الجزية فلم يكن يعفيه من دفع ضريبة الأرض المعروفة باسم « الخراج » . فالخراج كان مربوطاً بالأرض يتحملة صاحبها حتى لو أسلم

(١) انظر شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص ١٥٣ .

أو باعها لمسلم . ولهذا يقول المستشرق دى ساسى : « لعل ذلك أحد لأسباب التي دعت إلى بقاء المسيحية في الأقاليم مدة أطول منها في المدن » . كذلك كان فقد الرهبان لامتيازاتهم المادية عاملاً من عوامل ازدياد اعتناق الإسلام بينهم ، مما أدى إلى تناقص عدد الرهبان ، وهجر الأديرة شيئاً فشيئاً حتى صارت خراباً (١) .

(د) يقول المقريزى : لم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى ساول قيساً بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية كثُر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . وقد سبق حديثنا عن الهجرات العربية وبيان أهميتها في نشر الإسلام .

(هـ) وقد تحدث سوبرس بن المقفع عن موجات عدة من الدخول في الإسلام تمت في تلك الفترة . وهذه الموجات - من وجهة نظر علم اللغة - بغض النظر عن أسبابها الحقيقية قد قوت إلى درجة كبيرة من مركز اللغة العربية . ونحن نشير هنا إلى الحالتين الآتيتين اللتين ذكرهما ابن المقفع :

١ - في ولاية حفص (بين عامي ١٢٤ هـ = ٧٤١ م و ١٢٨ هـ = ٧٤٥ م) اعتنق الإسلام آلاف من الأقباط يبلغ عددهم أربعة وعشرين ألفاً (٢) .

٢ - في ولاية عون (من ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م إلى ١٣٦ هـ = ٧٥٣ م ومن ١٣٧ هـ = ٧٥٤ م إلى ١٤١ هـ = ٧٥٨ م) فرضت ضرائب باهظة على

(١) جالك تاجر ص ٨٨ ، وانظر شكرى فيصل ص ١٥٣ و ١٥٤ . ومصر الإسلامية للغربوطل ص ٣٠ .

(٢) يبدو أن سبب اعتناق هذا العدد الكبير للإسلام في عهد حفص أنه نادى بإعفاء كل دى من دفع الخراج . انظر : ترمون في كتابه : أهل الذمة في الإسلام ص ٣٨ .

الأقباط لدرجة أن كثيراً منهم تخلوا عن دينهم المسيحي وتبعوا عبد الله (١) .
ولسنا نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة كان كل شخص يعرف اللغة العربية .
ولكننا نزعم على الأقل أنه بانتهائها كان كل شخص يعرف العربية بحسب إمكانته
في المجتمع ويشعر أنه ابن من أبنائه بخلاف من أصر على تمسكه بلغته الأصلية ،
ولم يحاول تعلم اللغة العربية فقد أحس بانفصال عن المجتمع ، وشعر بغربة
لا يمكن أن يحس بها الشخص في وطنه . وأقرب مثل لذلك ما ذكره الشماس
يوحنا أنه بينما كان موسى مطران أوسيم في طريقه للمثول بين يدي الخليفة
مروان الذي لجأ إلى مصر عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م ألقاه الجند أرضاً وأخذوا
يضربونه على عنقه وعلى أضلاعه .. ولم يستطع المطران أن يتفاهم معهم لأنه
كان لا يعرف اللغة العربية وكان محتاجاً إلى مترجم ليترجم له ما يفوهون به .

(١) يمي الخليفة أبا جعفر عبد الله بن محمد .

الفصل الرابع

المرحلة الثالثة من الصراع

مرحلة النصر

هي آخر مراحل الصراع والتوتر : وقد شملت بقية القرن الثالث الهجري ومعظم القرن الرابع أو جميعه ، وتلتها مرحلة من الهدوء والاستقرار بدأت مع القرن الخامس . ويرجع ذلك للعوامل الآتية :

١ - ازدياد الهجرات العربية خلال هذه المرحلة . ومن أشهر القبائل المهاجرة في تلك الفترة :

(أ) قبيلة الكنزة . ففي سنة ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م في خلافة المتوكل حدثت هجرة كبيرة إلى مصر من ربيعة : حيث جاءت قبيلة الكنزة وهي إحدى بطون ربيعة ، وتفرق رجالها في جهات كثيرة ، ونزلت طائفة منهم في أسوان وشمال النوبة . وفي سنة ٢٥٦ هـ رافقت ربيعة جبهينة إلى البجة شرقاً . وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة بمنعهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم ، وفي ذلك الوقت أعيد كشف مناجم الذهب القديمة في صحراء النوبة ، مما أغرى العرب على الإقبال على مصر العليا للاستيلاء على هذه المناجم . وخرجت قبيلة الكنزة من ذلك بنصيب الأسد فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم (١) .

(١) انظر قبائل العرب في مصر لأحمد رضا السيد ١/٤٩ .

(ب) قبيلتنا هلال وسليم اللتان هاجرتا في القرن العاشر . فحين أصبح الفاطميون سادة في شمالي إفريقيا ، ونشروا نفوذهم على مصر والشام في سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م دعا الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) قبائل هلال وسليم إلى النزول بمصر فهبطوها وأنزلهم الصعيد (١) .

(ج) في أول القرن العاشر الميلادي اضطرت سلالة جعفر الطيار إلى النزوح عن الحجاز تحت ضغط بني الحسن فاجأت إلى مصر (٢) .

٢ - في عام ٢١٦ هـ = ٨٣١ م نشبت أكبر ثورة في البلاد انضم إليها عدد كبير من الأقباط وشملت الوجه البحري كله . فاضطر المأمون إلى أن يخضر بنفسه إلى مصر ويخمدتها بشدة . ويقول المقرئ في ذلك : فلما كان في جمادى الأولى سنة ٢١٦ انتفض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد وقبطنها ، وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيها ، فكانت بينهم وبين عساكر القسطنطين حروب . وبعد هذه المعركة لم تقم للأقباط قائمة ودخل كثير منهم الإسلام . ويعلق المقرئ على إخماد المأمون للثورة قائلاً : ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أراضي مصر وخذل شوكتهم ، فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان ، وغلب المسلمون على القرى .

٣ - من الثابت أنه منذ القرن الثالث الهجري أخذ عدد المسيحيين في مصر يتناقص ، ولم يعد لهم أغلبية عددية هناك . ويعتبر عصر الحاكم بأمر الله (من ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م إلى ٤١١ هـ = ١٠٢٠ م) نهاية النفوذ المسيحي في مصر .

ويعلق الدكتور جاك تاجر على عهد الحاكم بقوله : إن هناك حقيقة

(١)- المرجع السابق ١/٥٥ .

(٢) المرجع السابق ١/٦٣ و ٧٠ .

واقعة لا سبيل إلى انكارها ، وهي أنه قبل أن يترك الحاكم عرشه قضى على نفوذ النصارى في مصر . ومن ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين في الدولة ، وأصبح تاريخهم عبارة عن جملة أحداث ثانوية ، وفقدوا بعد ذلك شخصيتهم تدريجياً ليندمجوا في سواد الشعب .

وشيناً فشيناً زاد دخول الأقباط في دين الإسلام . ولم يأت القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي حتى كان عدد المسيحيين لا يزيد على عشر مجموع السكان .

٤ - في عام ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م صدرت أوامر الخليفة المعتصم العباسي إلى واليه على مصر كيدر بن نصر بتسريح الجيش العربي وشطب أفراده من ديوان الجند . وقيد الأتراك في مكائهم . وقد أدى هذا إلى تقليل النفوذ الرسمي للعرب في مصر ، ولكنه في نفس الوقت قوى من مركزهم الاجتماعي وبالتالي من مركز اللغة العربية . فلقد كانت النتيجة الختمية هي محاولة العرب الخدية البحث عن وظائف مدنية لهم . أو الاشتغال بالأعمال الحرة كالزراعة والتجارة ، والعمل على الاندماج في السكان الأصليين . والسعي لاكتساب صداقتهم ، وإنشاء علاقات أسرية معهم .

٥ - استمرار إجراءات تعريب الدولة . وصبغها صبغة إسلامية . والتمسك بشرط الإسلام لمن يريد شغل أى وظيفة في الدولة أو البقاء في منصبه . وأشير في ذلك إلى الأمثلة الآتية :

(أ) في سنة ٢٣٥ هـ أصدر الخليفة المتوكل نشرة يحذر فيها من توظيف اليهود والنصارى في الوظائف الرئيسية .

(ب) اعتنق اليهودى يعقوب بن كلس الإسلام في ظروف لا تؤيد بحال صدق عواطفه الدينية . كان أصله من بغداد وقدم إلى مصر في عهد كافور الإخشيدي ، وكان رجلاً واسع الذكاء والحيلة . وحين علم

مجال زمني واسع تم في فترة ما من فتراته هذا التحول الكبير . ونبدأ أولاً
فنعرض الآراء المختلفة التي قيلت حول هذا الموضوع : ثم نثني برأينا فيه :

١ - يذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر
بنحو قرن تلاشت اللغة القبطية نهائياً من معظم القطر المصري . ولم تعد تعرف
إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة (١) .

٢ - يرى دي لاسي أولبري De Lacy O'Leary أنه من الصعب
تحديد الوقت الذي حلت فيه اللغة العربية محل القبطية باعتبارها لغة دارجة بين
المصريين . ويرى أنه حتى القرن العاشر الميلادي ظلت اللغة القبطية لغة حية
خارج الأديرة . ويؤيد رأيه بالحقيقة القائلة إنه خلال ذلك القرن ظهر نتاج
من الشعر القبطي الشعبي وتم جمعه . وهو يحدد القرن التاسع الميلادي باعتباره
قرن التحول الخطير في تاريخ اللغة القبطية ، كما كان خطيراً في تاريخ الأقباط .

٣ - يرى آدم متز أن القبط لم يبدأوا بترك لغتهم القبطية إلا نحو أو آخر
القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي .

٤ - يرى بول كهل Paul Kahle أنه في القرن العاشر أو الحادي
عشر الميلادي أصبحت اللغة العربية راسخة جداً باعتبارها اللغة الرسمية في مصر .

٥ - يرى كاتب مادة « قبط » في دائرة المعارف الإسلامية أنه في القرن
الحادي عشر الميلادي - وربما قبل ذلك - لم تعد اللغة القبطية لغة مكتوبة .

٦ - يرى الدكتور جاك تاجر أن اضمحلال القبطية حدث بالتدريج
وعبر عن ذلك بقوله : « لقد كتبت اللغة العربية اللغة القبطية رويداً رويداً
مثل النبات الذي حرم من الماء والشمس في ظل شجرة كبيرة . لقد ظلت اللغة

(١) انظر سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ٢٥٩ .

القبطية على قيد الحياة حتى القرن العاشر الميلادي بل ازدهرت في الأديرة .
ولكنها منذ القرن الحادي عشر حرمت من العناية فذبلت بسرعة حتى إذا جاء
القرن الثاني عشر كادت تلتف أنفاسها ، . ولكنه يرى أنها ظلت مزدهرة
في صعيد مصر مدة أطول .

٧ - يؤكد المسيو ماسبيرو (مدير دار الآثار سابقاً) أن سكان الصعيد
كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس
عشر في أوائل حكم الأتراك .

٨ - يرى برنس J.D. Prince أن اللغة القبطية ماتت كلغة حديث منذ
نهاية القرن السابع عشر الميلادي . واستند في ذلك إلى ما ذكره الرحالة الهولندي
Van Sleb من أنه قابل رجلاً عجوزاً نحو عام ١٦٨٠ م يتكلم القبطية .
ويرى أن الفترة الحرجة في تاريخ اللغة القبطية في مصر هي الفترة ما بين القرنين
الخامس عشر والسابع عشر ، إذ بينهما أخذت القبطية تتلاشى بالتدريج
كلغة خطاب . ويعزز دعواه بما نقله عن المقريري (في القرن الخامس عشر
الميلادي) من أنه وجد نساء الأقباط وأطفالهم في الصعيد في وقته يتكلمون
القبطية غالباً . وينهى برنس رأيه قائلاً : ولاشك أن اللغة القبطية قد بدأت
تأخذ دوراً ثانوياً حتى قبل زمن المقريري لأنه في عام ١٣٩٣ م وجدت
مخطوطات قبطية كتبت عليها تعليقات باللغة العربية ، مما يدل على أنه في ذلك
الوقت كانت اللغة العربية معترفاً بها كلغة سائدة ، وأنها صار لها الاستعمال
العام .

٩ - يرى زكي شنودة أن اللغة القبطية بدأت تضمحل منذ القرن التاسع
الميلادي . وما أن جاء القرن الثالث عشر حتى كانت قد دحرت اللغة العربية
وسادت عليها . ويرى أنها ظلت لغة تخاطب في الصعيد حتى القرن السابع
عشر الميلادي . ويحدد القرن التاسع عشر باعتباره نهاية زمن الكلام بالقبطية .

أما نحن فيتلخص رأينا فيما يأتي :

١ - أنه لا بد لكي يكون التحديد الزمني دقيقاً أن نميز بين ثلاثة أنواع من اللغة العربية :

(أ) اللغة العربية باعتبارها لغة الدواوين أو اللغة الرسمية للدولة .

(ب) اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة .

(ج) اللغة العربية باعتبارها لغة التخاطب .

٢ - أنه لا بد كذلك أن نعرّف بتفاوت انتشار اللغة العربية من منطقة إلى منطقة تبعاً لقرّبها أو بعدها من مركز الحكم . ولسهولة الوصول إليها أو صعوبته . ولمدى فاعلية العوامل المختلفة التي سبقت الإشارة إليها ، ومن بينها التعريب والإسلام .

ومن أجل هذا فنحن نقترح التواريخ الآتية :

أولاً - القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حين أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة . بها تكتب الوثائق وتسجل المكاتبات الرسمية وتدون الدواوين . وفي حالة استعمال لغة غير العربية كان لا بد من قرنها بترجمتها العربية . ونشير في ذلك إلى الحقائق الآتية :

(أ) أن مجموعة وثائق البردى المصرية ، ومنها التي حققها أدولف جروهمان

Adolf Grohmann وبدأت دارالكتب المصرية في نشرها منذ

عام ١٩٣٤ ، تقل فيها الوثائق المكتوبة بغير العربية أو ذات

اللغتين . ومعظمها مكتوب باللغة العربية فقط . والوثائق تشمل فترة

تبدأ من القرن الأول الهجري وتمتد لعدة قرون .

(ب) ما سبق أن قلناه عن الاجراءات التي اتخذتها الدولة منذ نهاية القرن

الأول الهجري لتعريب الدواوين .

(ج) فى إحدى المنازعات اللى شجرت عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م بين الملكيين واليعاقبة بشأن ملكية بعض الكنائس ، كتب البطريرك ميخائيل الأول إلى السلطات التماساً باللغة القبطية . ولكنه أرفق به ترجمة عربية عملاً بمشورة بعض المطارنة .

وليس معنى تعريب الدواوين أن اللغة العربية أصبحت لغة الثقافة أو لغة التخاطب . فكما أن اتخاذا اليونانية لغة الدواوين لم يجعلها لغة عامة قبل الفتح الإسلامى . كذلك اتخاذا العربية فى الدواوين لم يجعلها لغة عامة :

ثانياً : القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حين أصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء : من أسلم منهم ومن لم يسلم . ويؤيد ذلك الحقائق الآتية :

(أ) ظهور مؤلفات باللغة العربية لمؤلفين أقباط لم تعرف لهم مؤلفات بغير العربية وأذكر من بينهم :

١ - سعيد بن بطريق الذى كتب كتباً منها « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » و « كتاب البرهان » .

٢ - سويرس بن المقفع المسيحى اليعقوبى الذى شغل منصب أسقف فى كنيسة أشمونين نحو عام ٩٨٥ م ، وكان رجلاً خصباً فى كتاباته ومع ذلك فضل الكتابة باللغة العربية . وأهم ما كتبه مؤلفه المشهور « سير الآباء البطارقة » .

(ب) ما ذكره سويرس بن المقفع فى مقدمة كتابه السابق الإشارة إليه الذى كتبه فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، من أنه ترجم مادة كتابه من اللغتين اليونانية والقبطية بعد أن وجد أقباط مصر فى عصره لا يعرفون غير اللغة العربية . ونص عبارته : « فاستعنت بمن أعلم استحقاتهم من الإخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها (يعنى سير الآباء البطارقة) بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم

العربي الذي هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم .

(ج) من الواجب أن الأقباط - فيما بعد - كتبوا تاريخهم بل ومقالاتهم الدينية باللغة العربية . وكان من أشهر كتاب الطائفة أبو شاكر بطرس ابن الراهب ، ومكين ، وأبو الفضائل ... من كانوا يجهلون اللغة القبطية .

(د) أن أوراق اليردي الطبية القبطية التي نشرها Chassiant تستعمل بكثرة مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية وأحياناً بحروف عربية . لقد كتبها مؤلفون أقباط في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين استعملوا كلتا اللغتين القبطية والعربية ، ولكن بشكل يجعلنا نقول إنهم كانوا على علم باللغة العربية أكثر من علمهم باللغة القبطية . وقد كانوا كثيراً ما يفضلون استعمال المصطلح العربي على مقابله اليوناني أو القبطي .

(هـ) كتب ميخائيل السورى عن جبرائيل الثانى (من بطاركة اليعاقبة : ١١٣١ - ١١٤٦ م) يقول : إنه كان بارعاً فى اللغة العربية وخطها . ولما رأى أن الشعب المصرى يتكلم اللغة العربية ويكتب بها نظراً لطول عهد السيادة العربية اهتم بترجمة التوراة والإنجيل إلى العربية ، وكذلك بقية كتب الطقوس الدينية الأخرى ليستطيع الشعب فهمها .

ثالثاً : القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حيث أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب العامة لكل المصريين على السواء ، بدليل ما يأتى :

(أ) أنه فى ذلك القرن كان عدد المسلمين قد زاد بشكل ملحوظ ، فى حين تناقص عدد الأقباط تناقصاً حاداً بإسلام الكثيرين ، وهجرة عدد آخر إلى مناطق النفوذ البيزنطى .

(ب) أن رجال الدين المسيحي كانوا يعظون منذ القرن الرابع الهجري باللغة العربية لكي يفهمهم سامعوهم .

(ج) أن أبا صالح الأرمني ذكر أنه في القرن السادس الهجري كان المثقفون القبط فقط من بين رجال الكنيسة هم الذين يعرفون القبطية .

ومع ذلك فنحن نرى أن غلبة العامية العربية على القبطية ربما تأخر عن ذلك قليلاً أو كثيراً في بعض الأماكن النائية من قرى الصعيد ولكن ذلك بأي حال لا يمكن أن يتجاوز قرناً أو قرنين آخرين ، ولا يمكن أن يكون له صفة العمومية . ولهذا فنحن نشك في أن ما قاله المقرئزي (القرن الخامس عشر) : « ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ولهم أيضاً معرفة تامة باللغة الرومية » - ينطبق على عصره . ونرى أنه نقله عن مرجع قديم لا يتجاوز الفترة التي ذكرناها بدليل ما جاء في آخر النص من أن نساء الصعيد لها معرفة تامة باللغة اليونانية (١) ، إذ لا شك أن ذلك لم يكن في عصره بأي حال من الأحوال .

أما داخل الأديرة وبين الرهبان ، فنحن نتوقع أن يوجد بعض من كانوا يتكلمون القبطية لمدة أطول من ذلك . ويذكر المقرئزي في خططه عن « دير موشه » أن « الأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى » . ولكن مرة أخرى لا يمكن أن يكون لذلك صفة العمومية وإلا ما احتاج المقرئزي إلى النص عليه بالنسبة لهذا المكان ، وبدليل ما ذكره بعض المؤرخين من أنه « لم يمض على الفتح قرن من الزمن حتى اضطرب بعض الرهبان أن يلجأوا إلى المترجمين لقراءة النصوص القبطية » .

وأما ما ذكره بعضهم عن وجود أناس يتكلمون اللغة القبطية حتى عصر

(١) كان العرب يسمون اليونان بالروم واللغة اليونانية باللغة الرومية (ج . صبحى :

قواعد اللغة المصرية القبطية ص ٦) .

متأخر فمما هي إلا حالات فردية نادرة لا يبني عليها حكم ، وهي من ناحية أخرى ليست كافية للقول بخياة لغة ما . ولا يمكن اعتبار اللغة حية أن يتكلمها فرد أو فردان عن طريق التعلم . أو أن تكون لغة ثانية بصطنعها بعض الناس عن عمد أو تعصب . ومما يدل على ندرة من بقي يتكلم القبطية بعد تلك الفترة أن الرحالة يئي مصر على الرغم من تنقيهم الشديد كان يصعب عليهم مقابلة أى شخص يعرف القبطية وإذا حدث ووجد أحدهم من يتكلمها كان يزعم أنه آخر شخص يتحدث بها .

ولكن لا تعنى هزائم اللغة القبطية المتتالية أمام هجمات العربية أنها لم تثبت وجودها في أى فترة من فترات الصراع . فقد فرضت نفسها لفترة ما كلفة حديث حتى على العرب أنفسهم . وتعلمها الكثيرون منهم . ومن عرفوا بإجادتهم اللغة القبطية القاضى خير بن نعيم الذى كان يتكلم للخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية .

كما لا تعنى هزيمة اللغة القبطية زوالها النهائى من الوجود ، فلا بد أنها ظلت تدرس ويتخصص فيها من يريد على الرغم من اعتبارها لغة ميتة ، كاللغة اللاتينية مثلاً التى تعد لغة ميتة ومع ذلك لاتزال تدرس حتى اليوم . ولذا فمن الطبيعى أن يوجد أناس حتى الآن يعرفون اللغة القبطية ، وربما يقادرون على الكلام بها . ومن الطبيعى كذلك أن يهتم رجال الكنيسة القبطية بوجه خاص بهذه اللغة لكتابة كثير من تراثهم الدينى بها وإن كان Prince قد ذكر فى كتابه *The Modern Pronunciation of Coptic* أن معظم الوعاظ الأقباط غير متخصصين فى اللغة القبطية ، ولذا فهم يكتفون بتريد الصلوات كالببغاوات باللسان القبطى مع ترجمة لها باللغة العربية . كذلك ضلت اللغة القبطية حية حياة جزئية فى شكل بقايا وآثار اختلطت باللغة العربية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها ، كما سنتحدث فيما بعد .

أما إلى أى مدى بلغ هذا التأثير ، فهو ما سنعالجه - مع قضايا أخرى - فى الباب الثانى إن شاء الله :

الفصل الخامس

النهضة الثقافية في مصر وأثرها على اللغة العربية

كانت مصر منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامي مركزاً كبيراً للثقافة العربية، وجامعة إسلامية تغص بالعلماء والدارسين في مختلف التخصصات. وكانت في قرونها الإسلامية الأولى بمثابة منارة علمية تشع نورها على كل البلاد المجاورة؛ ويؤمها الطلاب من المشرق والمغرب للتزود من علمها الغزير والنهل من موردها العذب.

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نتحدث في هذا الفصل عن جهود مصر المتعددة في مجالات العلم المختلفة؛ ولذا سنقتصر حديثنا على الفروع التي تخص الثقافة العربية والإسلامية والتي كان لها أثر قريب أو بعيد في النهوض بمستوى اللغة العربية في مصر والارتقاء بأساليب الكتابة والإنشاء؛ كما كان لها أثر كبير في مساعدة الأجانب عن اللغة على تعلمها؛ ومد يد العون لمن يريد إجادة فن الكتابة لينفتح أمامه سبيل العمل في الدواوين والمصالح الحكومية. وسوف نقصر حديثنا على المجهودات التي تمت حتى نهاية القرن الرابع الهجري. وهو القرن الذي اعتبرناه نقطة التحول في لغة الثقافة في مصر؛ وقرن انتصار العربية على القبطية وصورتها لغة التأليف للمسلمين والأقباط على السواء.

أما في مجال الدراسات الإسلامية فقد كانت الريادة لأولئك العرب الذين صاحبوا جيش الفتح من الصحابة أو وفدوا بعده بقليل؛ واتخذوا مصر موطناً لهم، وعاشوا فيها فترة من الزمن، طالت أو قصرت.

وقد كان من أشهر علماء القراءات الذين قصدوا مصر في وقت مبكر جداً الصحابة عبيد بن عمر الذي شغل منصب أول قارئٍ رسمي في مصر ، وعقبة بن الحارث الفهري . وتلاههم جيل من التابعين ، منهم عبد الرحمن ابن هرمز تلميذ أبي هريرة ، وعبد الله بن العباس الذي اختار الإسكندرية موطناً له ، وتوفي عام ١١٧ هـ = ٧٣٥ م .

أما رجال الحديث فكان في مقدمتهم الصحابي الشهير أبو هريرة راوي أكبر عدد من الأحاديث النبوية ، وقد جاء إلى مصر في عهد مسلمة بن مخلد (من ٤٧ هـ = ٦٦٧ م إلى ٦٢ هـ = ٦٨١ م) ، وكذلك الصحابة عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، الذي جاء مع جيش الفتح إلى مصر ، وعبد الله ابن العباس ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو ذر الغفاري ، وسعد بن أبي وقاص . وتلاههم جيل من التابعين خصص السيوطي فصلاً لتعداد أسماهم في كتابه « حسن المحاضرة » .

ومن أشهر من اشتغلوا بالقانون الإسلامي وإصدار الفتاوى الدينية سالم ابن عتر التجيبي الذي أصبح كبير القضاة في مصر عام ٤٠ هـ = ٦٦٠ م وتوفي عام ٧٥ هـ = ٦٩٤ م . ومنهم عبد الرحمن بن حجيرة الذي عين كبير القضاة في عهد عبد العزيز بن مروان (من ٦٥ هـ = ٦٨٤ م إلى ٨٥ هـ = ٧٠٤ م) واشتهر بآرائه السديدة وفتاواه الموفقة في المسائل الفقهية المشككة . وأخيراً نافع مفتي المدينة ، الذي أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليتولى منصب الإفتاء فيها .

ومع مطلع القرن الثاني الهجري بدأ أول جيل من المصريين يقتحم الميدان ويسهم بدوره في إقامة صرح الدراسات الإسلامية :

وأول قارئٍ مصري ذاع صيته داخل البلاد وخارجها كان عثمان ابن سعيد الملقب بـ « ورش » الذي ولد عام ١١٠ هـ = ٧٢٨ م ، وتعلم

على نافع بن عبد الرحمن أحد القراء السبعة . وتوفى ورش عام ١٩٧ هـ = ٨١٢ م وعاصره جمع آخر من القراء المحليين لم يشتهروا شهرته مثل سقلاب ابن شيبه ، وعبد الله بن وهب ، ومعل بن دحية ، وأشهب بن عبد العزيز . ثم ظهر جيل ثالث ، وتضاعف عدد القراء بشكل ملحوظ . ولم يأت النصف الثاني من القرن الثالث الهجري حتى كانت كتب كثيرة قد ظهرت في مصر تتناول فن القراءات والتفسير القرآني . ومن أشهر من ألف في هذين الموضوعين العالم المصري الشهير أبو جعفر النحاس (توفى سنة ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) الذي ألف « إعراب القرآن » و « معاني القرآن » و « الناسخ والمنسوخ » و « الوقف والابتداء » . ومن حسن الحظ أنها وصلتنا جميعاً .

أما مجال التأليف في الحديث النبوي فكان أسبق من مجال التأليف في القراءات والتفسير ، إذ أن أقدم مجموع وصلنا هو ذلك الذي كتبه عبد الله بن وهب (ولد عام ١٢٥ هـ = ٧٤٢ م) بعنوان « الجامع في الحديث » . وقد عثر على جزء كبير منه مؤخراً في « إدفو » في صعيد مصر . ومما هو جدير بالذكر كذلك أن أصحاب الكتب الستة من رجال الحديث قد زاروا مصر بحثاً عن مادة جديدة ، ومنهم من زارها أكثر من مرة ، مثل « النسائي » الذي غادرها لآخر مرة عام ٣٠٢ هـ = ٩١٤ م .

وأول فقيه مصري عرف كمجتهد كان يزيد بن أبي حبيب الذي شغل منصب مفتي مصر ، ثم تلاه عدد من الفقهاء المصريين الذين نافسوا أصحاب المدارس الفقهية الأربعة المشهورة مثل ، الليث بن سعد (ولد بمصر عام ٩٤ هـ = ٧١٢ م) ، وتلا ذلك جيل كبير من الفقهاء الذين ناصرُوا مدرسة فقهية معينة ، كمدرسة مالك أو الشافعي أو أبي حنيفة .

وقد كانت شهرة مصر في مجال الدراسات الإسلامية معروفة في كل أنحاء العالم الإسلامي ، وكثيراً ما استشير علماءها في مشكلات أثرت خارج حدودها .

ومن ذلك ما رواه الكندي من أن الخليفة عبد الملك بن مروان كتب إلى والي مصر يسأله أن يرسل إليه برأى فقهاء مصر في عدة المطلقة ثلاثاً . وقد جذبت هذه الشهرة علماء كثيرين وفدوا إلى مصر للاستفادة من علمها ، وهذا بدوره أفاد علماء مصر وربطهم بجوانب مختلفة من التفكير . ومن بين من قصدوا مصر من كبار العلماء الإمام الشافعي ، والإمام الطبري المؤرخ والمفسر المشهور (وصل مصر عام ٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م) .

وأما في مجال الأدب فلم تنبغ مصر طوال حكم الأمويين ، وكل ما وصلنا عن هذه الفترة أبيات شعرية قليلة منسوبة إلى شعراء زائرين .

ولكن مع مطلع العصر العباسي بدأ الشعر المصري يحقق تقدماً ملحوظاً ، وظهر إلى جانب الشعراء الزائرين شعراء مصريون ، مثل سعيد بن عفير (ولد في مصر عام ١٤٦ هـ = ٧٦٣ م) ، ومعلی الطائي . ومع قيام الدولة الطولونية حقق الأدب تقدماً آخر أخذ أشكالاً ثلاثة :

١ - الشعر : انتعش الشعر أيام حكم الطولونيين نتيجة لتشجيع الحكام وإغداقهم الجوائز والهبات على الشعراء ، مما جذب الشعراء من الخارج من ناحية ، ونهض بالشعر المصري من ناحية أخرى . وعلى رأس الشعراء المصريين نجد الحسين بن عبد السلام المسمى بالجميل الأكبر (ولد سنة ١٧٠ وتوفي سنة ٢٥٨) ، والحسين المسمى بالجميل الأصغر والقاسم بن يحيى بن معاوية ومنصور بن إسماعيل بن عمر . ويقال إن أسماء الشعراء الذين كانوا يترددون على بلاط أحمد بن طولون كانت تملأ اثنتي عشرة كراسة .

٢ - النثر : في هذه الفترة وجهت عناية أكبر « بديوان الإنشاء » وأصبح مطمح كل كاتب أن يشغل منصباً فيه . وقد أدى هذا بالكتاب أن يحاولوا إجادة اللغة العربية والتلاعب بأساليبها ، كما أدى إلى ظهور مؤلفات تأخذ بيد الكتاب الناشئين . وتبذل لهم النصيحة ، وترشدهم إلى كيفية

الارتقاء بأساليبهم . وأشهر كتاب ظهر في تلك الفترة كتاب « صناعة الكتاب » لأبي جعفر النحاس . والكتاب لم يصلنا ، ولكن من اقتباسات « صبح الأعشى » منه يمكننا أن نقول إنه يشتمل على نصائح عامة تفيد من يريد أن يحترف مهنة الكتابة ، ويحوى قائمة بالألقاب الرسمية التي يجب أن يخاطب بها كل شخص بحسب منصبه ، وبين مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار من الأقلام ، ويعطى نماذج مختلفة لبدايات الرسائل ونهاياتها ، وقواعد مختصرة للهجاء ، ويعرف بوظائف الدولة واختصاصات كل منها ، ويشرح المصطلحات المستعملة في الرسائل الديوانية . وهو إلى جانب ذلك يقدم نماذج للرسائل الديوانية والإخوانية على مختلف العصور . وهذا قالب للرسالة الديوانية كما اقترحها أبو جعفر النحاس ننقله عن « صبح الأعشى » :

« وقد اختلف في تقديم الاسم والكنية واللقب . والذي رتبته أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب تقديم الاسم على الكنية وتقديم الكنية على اللقب . مثل أن يقال (من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين) . ثم قال : وهذه المكاتب هي التي اصطلاح عليها في الأمور السلطانية التي تنشأ بها الكتب من الدواوين . وترتيب المكاتب على ما ذكره في صناعة الكتاب أن يكتب : (من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين : سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين بحمد الله إليك الله الذي لا إله إلا هو : ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله) ثم يفصل ببياض يسير ويكتب : (أما بعد فإن كذا وكذا) ثم يأتي على المعنى . فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر يفصل ببياض يسير ثم يكتب : (وقد أمر أمير المؤمنين بكذا ورأى أن يكتب إليك بكذا) فيؤمر بامثال ما أمر به والعمل بحسبه ثم يفصل ببياض ويكتب : (فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين واعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب فلان ابن فلان) باسم الوزير واسم أبيه (يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا) .

وقد يكتب في أواخر المكاتبة بعد استيفاء المقصد (هذه مناجاة أمير المؤمنين لك) أو (هذه مفاوضة أمير المؤمنين لك) .

ومما يدل على أهمية كتاب النحاس واحتلاله مكاناً فريداً بين أقرانه أننا نجد القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» يعتمد - في الفصول المتناظرة - على هذا الكتاب إلى درجة كبيرة . وتبلغ اقتباساته منه نحو المائة . وهناك صفحات كاملة من «صبح الأعشى» مأخوذة بنصها من كتاب النحاس .

ومما هو جدير بالذكر كذلك أنه ظهر في ذلك الوقت في مصر لأول مرة مجموعة من القصص القصيرة كتبها مصري صميم هو «ابن الداية» . وعرفت هذه المجموعة باسم «المكافأة» . وقد ولد هذا المؤلف في مصر عام ٣٤٠ هـ = ٥٩١ م واسمه أحمد بن يوسف .

٣ الدراسة الأدبية : وقد ظهر في هذه الفترة مجموعة من الدراسات الأدبية والنقدية ومن بينها كتاب «النقائص» لأبي العباس أحمد بن ولاد (توفي عام ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م) و «أخبار الشعراء» و «شرح المعلقات» و «معاني الشعر» و «شرح الحماسة» : وجميعها لأبي جعفر النحاس .

فإذا انتقلنا إلى ميدان الدراسات اللغوية رأينا نشاطاً لا يقل عن نظيره في سائر أنحاء العالم الإسلامي : وإن بدأ متأخراً بعض الشيء . وأول اسم بطالعنا لشخصية لغوية هامة تفاد إلى مصر هو اسم عبد الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤني واضع علم النحو - في بعض الروايات . وقد أقام ابن هرمز بالإسكندرية إلى أن توفي عام ١١٧ هـ .

ومع مطلع القرن الثالث الهجري غصت مصر بالانغويين والنحاة ، ونشطت فيها الحركة اللغوية إلى حد كبير . وعلى رأس الانغويين الأجانب الذين وفدوا إليها نجد أسماء مثل :

١ - محمد بن يحيى اليزيدي الذي جاء مع المعتصم إلى مصر (عام

٢١٤ هـ = ٨٢٩ م) ومات بها تاركاً عدة كتب منها: «النوادر» و«المقصود والممدود» و«مختصر النحو» و«النقط والشكل».

٢ - أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري الذي توفي في مصر عام ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م. وقد كتب خلال إقامته بمصر كتاباً في النحو سماه «المهذب».

٣ - علي بن سليمان الأخفش الذي جاء إلى مصر أكثر من مرة لإحداها عام ٢٨٧ هـ = ٩٠٠ م وغادرها لآخر مرة عام ٣٠٦ هـ = ٩١٨ م ومات ببغداد عام ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م. ومن مؤلفاته كتاب «الثنية والجمع»، وكتاب «شرح سيوبه» في خمسة مجلدات.

ومنذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع أخذت الدراسات اللغوية المصرية تشق طريقها بنفسها، وتقف على قدميها وحدها، وتنافس نظيراتها في سائر أنحاء العالم الإسلامي. وظهر لأول مرة مؤلفون مصريون متفوقون، انضمت جهودهم إلى جهود الوافدين من البلاد الأخرى فخلقت حركة لغوية نشيطة أثارت إليها انتباه العالم الإسلامي كله. ومن أشهر الوافدين في تلك الفترة أبو بكر الدينوري وأبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة والأخوان الحسن والحسين بن الوليد. أما اللغويون المصريون فكانوا كثيرين ومتفاوتين في الشهرة وفي الإنتاج العلمي، ولكن كان على رأسهم ثلاثة هم: كراع النمل واسمه علي بن الحسن الهنائي (توفي ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م). وابن ولاد واسمه أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد (توفي ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م) والنحاس واسمه أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (توفي ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م).

أما كراع فقد ترك آثاراً لغوية كثيرة أشهرها «المنجّد» الذي يعالج مشكلات المشترك اللفظي ويعرض كثيراً من ألفاظه، و«المنتخب» الذي يحوى نفاً مختلفة لمباحث علم اللغة ومنهما نسخ مخطوطة متنوعة في دار الكتب المصرية

وغيرها . كما بث كراع في ثنايا كتبه آراء ناضجة في كثير من مشكلات علم اللغة وأصوله .

وأما ابن ولاد فقد ترك آثاراً منها : « المقصور والمدود » الذي يعالج مشكلات الكلمات المقصورة أو الممدودة ، ويذكر طريقة هجائها ، ويحصر مفرداتها . وقد طبع الكتاب طبعين حتى الآن . ومن آثاره « الانتصار لسيبويه على المبرد » الذي اتخذ جانب الدفاع عن سيبويه في مسائل الخلاف بينه وبين المبرد ، وتوجد منه نسخ مخطوطة في دار الكتب المصرية وغيرها . وكان لابن ولاد آراء تقدمية في كيفية تععيد القواعد وفي أصول النحو تعد حتى الآن من أنضج ما قيل في الموضوع .

وأما أبو جعفر النحاس فكان نسيج وحده . ولم يترك باباً من أبواب الدراسات الإسلامية إلا طرقه وألف فيه . كتب في القراءات ، وفي التفسير والحديث ، وفي النسخ والمنسوخ ، وفي النحو وفقه اللغة ، وفي الأدب ودوائر المعارف . وكان في كل ما يكتب موفقاً . ومما تركه في مجال الدراسات اللغوية : « إعراب القرآن » و « المقنع في الخلاف بين البصريين والكوفيين » و « الكافي في النحو » و « شرح أبيات سيبويه » و « شرح كتاب سيبويه » و « كتاب الاشتقاق » و « خلق الإنسان » و « التفاحة في النحو » . والكتاب الأخير ذو أهمية كبيرة - في نظرنا - بوجه خاص ، لأنه وضع تلبية لحاجة الناشئة ، وكتب في أسلوب ميسر وبطريقة أقل ما توصف به أنها سهلة مبسطة . والكتاب يلخص النحو كله في بضع ورقات ، ويقدم للدارس المبتدئ عصارة القواعد النحوية العملية ، منحياً جانباً كل ما لا يفيد في تقويم النطق وتصحيح البيان ، وكل الخلافات اللفظية والمناقشات الفلسفية التي تمتلئ بها كتب السابقين . وأغلب ظننا أنه كتب بهدف تقريب نحو اللغة العربية للأجانب وبقصد مساعدتهم في دراسته ، ولذا اختار مؤلفه له اسماً جذاباً هو « التفاحة » . ويعد الكتاب ثورة على الطريقة التقليدية في دراسة النحو العربي ، ولعله أول

كتاب يصلنا وهو يحوى تطبيقاً فعلياً للمنهج الوصفي في دراسة اللغة . ومن أمثلة ذلك قوله :

١ - الفاعل مرفوع أبداً تقدم أو تأخر . وهذا يعني أن « محمداً » في الجملة « قام محمد » أو « محمد قام » تعرب فاعلاً . وهذا يخالف التحليل التقليدي للجملة الثانية الذي يعتبر الفاعل ضميراً مستتراً تقديره « هو » ويعرب « محمد » مبتدأ والجملة من الفعل والفاعل بعده في محل رفع خبر ذلك المبتدأ .

٢ - عد أبو جعفر النحاس من بين حروف الجر الكلمات « أعلى » و « أسفل » و « خلف » و « قدام » و « وراء » و « أمام » و « فوق » وأشباهاها . وهذا خروج على النحو التقليدي الذي يعتبرها كلها ظرفاً . وقد كان النحاس موفقاً في فكرته هذه وطرحه جانباً الرأي التقليدي ووصله إلى هذا الرأي الجديد الذي ينظر إلى الأثر الإعرابي فحسب . وأى فرق بين قولنا : « الكوب على المائدة » و « الكوب فوق المائدة » ؟ لا فرق بينهما عندنا وعند النحاس وإن كان القدماء قد اعتبروا « على » حرف جر ، وما بعدها مجروراً بها . واعتبروا « فوق » ظرفاً وما بعدها مضافاً إليه .

ولم يقف دور مصرفي تلك الفترة عند التأليف والتنقيب . وإنما تجاوز ذلك إلى تمثيل الثقافة الإسلامية وهضمها ثم إخراجها في صورة مبتكرة . وقد كانت مصر بمثابة القنطرة التي عبرت عليها الثقافة العربية من الشرق إلى الغرب ، وكانت ماتي للدراسين من شتى البقاع ، وجامعة إسلامية يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي . ولم يكتب للمؤلفات المصرية الرواج داخل مصر وحدها . وإنما في المغرب والأندلس كذلك . وحتى نهاية القرن الرابع الهجري كانت بلاد المغرب والأندلس تعتمد اعتماداً كلياً في دراساتها العربية الإسلامية على مصر . ولم تنضج تلك الدراسات هناك إلا على يد المبعوثين

الذين زاروا مصر ودرسوا فيها ثم عادوا إلى أوطانهم يحملون الزاد ويدرسون المؤلفات المختلفة التي تلقوها في مصر ، ومن بينها المؤلفات المصرية . وقد وجدنا أن كل مؤلفات ابن ولاد وثلاثة عشر مؤلفاً من بين مؤلفات أبي جعفر النحاس قد دخلت الأندلس في وقت مبكر جداً قد يكون في حياة المؤلفين أو بعد وفاتها بقليل . كما وجدنا مؤلفات كراع النمل منتشرة جداً في بلاد المغرب بخاصة . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى الحقائق التالية :

١ - من بين تلاميذ النحاس - الذين استطعت التوصل إليهم - وعددهم أربعة عشر تلميذاً وجدت ثلاثة مصريين فقط . أما الباقون فمن بلاد مختلفة .

٢ - من بين الأسماء الخمسة الأولى في كتاب « ابن الفرضي » تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس وجدت خمسة وخمسين اسماً على الأقل لأناس درسوا في مصر .

٣ - هناك اقتباسات كثيرة من كتب المصريين في الكتب المتأخرة ، وأخص بالذكر ما يأتي :

(أ) في الجزأين الأول والثاني من كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي يوجد نحو ستين اقتباساً من أبي جعفر النحاس .

(ب) في « صبح الأعشى » للقلقشندي نجد أكثر من مائة اقتباس من « صناعة الكتاب » للنحاس .

(ج) في « لسان العرب » نجد أكثر من سبعمائة اقتباس من مؤلفات كراع النمل .

وقد كانت مراكز الثقافة في مصر متعددة ومتنوعة ، وكان كل مركز منها يقوم بدوره الخاص في نشر الثقافة الإسلامية ، وكثير منها كان مشمولاً برعاية الحكام وذوى الثراء . وأشهر تلك المراكز :

١ - المسجد : وقد كان أهم مركز ثقافي في تلك الفترة . وكانت أشهر المساجد في مصر خلال تلك الفترة هي : جامع عمرو بن العاص ، وجامع أحمد ابن طولون ، ثم الجامع الأزهر . ففي جامع عمرو كانت تلقى دروس دينية منذ عام ٣٨ هـ = ٦٥٨ م . وفيه كان الإمام الشافعي يلقى دروسه ومحاضراته ، وكذلك الإمام الطبري . وفي عهد الإخشيديين (من سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٤ م إلى ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م) كان فيه ثلاث وثلاثون حلقة خاصة بالدروس الفقهية . وأما جامع ابن طولون فقد انتقل إليه الطبري بعد بنائه ، وكان أحمد بن طولون يجرى عليه الأوقاف ويخصص لعلمائه المرتبات . وبعد تشييد الجامع الأزهر انتقل النشاط الديني إليه ، وأصبح مركزاً للدعاية الفاطمية . وليس أدل على اتساع النشاط العلمي في ذلك الوقت من أن المقدسي الذي زار مصر في القرن الرابع الهجري سجل ملاحظة خطيرة فحواها أنه وجد مساجد مصر مزدحمة بالطلاب بشكل لم يره في أي بلد إسلامي آخر . وذكر أنه عد حلقات أحد هذه المساجد فوجدها تبلغ مائة وعشر حلقات .

٢ - (صالونات) الحكام : كذلك قامت (صالونات) الحكام وذوي الثراء بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية وتشجيع البحث العلمي ، فكانت تعقد فيها اجتماعات دورية وحلقات علم مستمرة . وكان من العادة أن يحضر الحكام والوجهاء هذه الاجتماعات ويشاركوا في المناقشة ويثيروا المتفوق فيها . وقد بدأت شهرة هذه المجالس منذ قيام الدولة الطولونية وتضاعفت شهرتها في عهد الفاطميين . ونشير بوجه خاص إلى الاجتماعات الدورية التي كانت تعقد في (صالون) الوزير « ابن كلس » والتي كان يحضرها القضاة والفقهاء والشعراء والنحاة والمحدثون وكل ذوى الحيشة في المجتمع . وليس هذا فحسب ، بل شاركت مصر في الاجتماعات العلمية والمؤتمرات التي كانت تعقد في الخارج . ومن ذلك ما حدث عام ٣٢٦ هـ = ٩٣٧ م حين انعقد مؤتمر علمي في بغداد بإشراف الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات ، وأرسلت مصر ممثلها الرسمي لحضوره .

٣ - دور الكتب : وقد انتشرت دور الكتب الخاصة خلال تلك الفترة وتنافس الأغنياء والعلماء في اقتناء نواذر المخطوطات . وبناء على ما ذكر ابن خلكان كانت مكتبة العزيز الفاطمي حافلة لدرجة أنه احتاج إلى تعيين « أمين » لديرها وينظمها . ونجبرنا المقرئ أن هذه المكتبة كانت تحوى ثلاثين نسخة من كتاب « العين » أول معجم عربي ، بينها نسخة بخط المؤلف نفسه ، كما كان يوجد بها عشرون نسخة من تاريخ الطبري ، ومائة نسخة من معجم الحمرة لابن دريد .

٤ - محلات الوراقه وبيع الكتب : ففضلا عن دورها في نسخ المخطوطات وبيعها كانت مركزاً يلتقي فيه الدارسون ويتجادبون الحديث ويدبرون المناقشة . وكانت هذه المحلات تتركز في سوق قرب جامع عمرو بن العاص وتغص بالباحثين ، وبخاصة في زمني الطولونيين والإخشيديين .

البابُ الثاني

أخصائص اللغة العربية مصر

تمهيد

سنحاول في هذا الباب أن نقدم وصفاً للغة العربية التي كانت بمصر في الفترة موضوع الدراسة ، وأن نحدد العوامل التي تحكمت في تشكيلها ، وتدخلت لتصبغها صبغة معينة تميزها عن سائر العرييات .

وقد وجدنا أن هناك عاملين يعدان من أهم العوامل التي تستحق الدراسة في هذا الخصوص ، بقصد الكشف عن مدى أثرهما في عربية مصر ، وهما :

١ - اللغة القبطية (وإلى حد ما اليونانية) .

٢ - اللهجات العربية .

كما وجدنا أن هناك عوامل ثانوية أثرت في عربية مصر : منها عامل الميل نحو السهولة وتوفير الجهد ، وعامل اللامبالاة ، وعامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية ، مثل اللاتينية والفارسية والتركية . وسنتناول هذه العوامل في ثلاثة فصول على التوالي .

وقد رأينا قبل أن نعالج هذه العوامل بالترتيب المذكور أن نبدأ بدراسة موجزة في فصلين ، نتناول في أولهما الصعوبات التي تعترض مثل هذه الدراسة اللغوية ، ونصنف في ثانيهما المادة التي اعتمدنا عليها في تحليلنا اللغوي .

وهكذا استقر لإخراج هذا الباب في خمسة فصول .

الفصل الأول

صعوبات على الطريق

الحقيقة التي يواجهها أي دارس للهجات العربية القديمة خارج الجزيرة العربية - ولحد ما داخلها - هي قلة المادة اللغوية من ناحية ، وانعدام الدراسة اللغوية المنهجية لها من ناحية أخرى . وهناك حقيقة أخرى تشمل اللهجات العربية القديمة جميعها ، وهي اختلاط مادتها بعضها ببعض ، وصعوبة عزل مادة أي واحدة منها عن غيرها ، وهي صعوبة قد تصل أحيانا إلى حد الاستحالة والتعذر . وحتى اللغويون المحليون ، الذين كان ينتظر منهم أن يسجلوا ما كان يدور في بيئتهم من تعبيرات خاصة ، وأن يقوموا بدراسة موضوعية للمستويات اللغوية المستعملة في أوطانهم ، سواء كانت على المستوى الأدبي ، أو مستوى الحديث العادي ، أو بين بين - حتى هؤلاء لم يلقوا بالأل هذا الجانب ، ولم يحاولوا أن يسهموا بمجهوداتهم فيه . كذلك لم يعن أحد منهم بناحية التطور في دلالة الألفاظ ، أو نطقها ، فلم يبين أي من لغويي القرن الخامس مثلا المعنى الذي يفهمه معاصروه من لفظ جمعه زميل له في القرن الثالث مثلا إلا في النادر . كذلك لم يعن أحد منهم بتطور نطق الألفاظ في عصره على الرغم مما نجده في كتاب سيبويه وفي البيان والتبيين للجاحظ من إشارات مفيدة في هذا الموضوع ، ومن تسجيل نماذج من التطورات التي تمس الأصوات وطريقة نطقها (١) . والسر في عدم العناية هذا أنهم جميعا كانوا ينظرون إلى هذا

(١) انظر الكتاب (ط بولاق) ٢ / ٤٠٤ وما بعدها ، والبيان والتبيين =

التطور على أنه نوع من اللحن أو المولد ، أو شيء من سقط المتاع الذي لا يصبح تسجيله ، ولا يجوز إعارته أى انتباه . ولذلك نجدهم جميعاً قد وجهوا كل اهتمامهم إلى جمع المادة اللغوية القديمة التي سموها بالفصحى ، والتي وضعوا لها شروطاً ومواصفات تشمل الزمان والمكان ، وتسابقوا في تنظيم هذه المادة ، وعرضها بطرق مختلفة .

ويبرز من بين المحاولات التي بذلت لتسجيل بعض جوانب التطور اللغوي نوعان من البحوث : أولهما : كتب اللحن والخطأ والمولد والتصحيح والتحريف . وثانيهما : كتب المعرب والدخيل . وكتب اللحن - وما لفت لفتها - عبارة عن رسائل صغيرة ألفت على مر العصور وفي مختلف الأصقاع التي تتكلم العربية ، بقصد علاج داء استشرى في لغة العرب ، وهو داء اللحن والخطأ في الكلام . وقد بدأ التأليف فيه في عصر مبكر جداً: ربما منذ القرن الثاني الهجري ، وشهدت بداية القرن الثالث طائفة كبيرة من كتب هذا النوع . ويدخل في ذلك الباب تلك الفصول التي اشتملت عليها كتب مثل «إصلاح المنطق» لابن السكيت، و«أدب الكاتب» لابن قتيبة، و«الغريب المصنف» لأبي عبيد ، والتي تعالج مظاهر التغيرات التي حدثت في بعض الكلمات، سواء

= ص ١٥ ، ١٨ - ٢٢ وبخاصة قوله « وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر » (ص ١٨) ، وكذلك باب « ذكر الحروف التي تدخلها اللغة وما يحضرن منها » (ص ٣٤ وما بعدها) . وانظر ص ٧٠ - ٧٤ وبخاصة قوله « ألا ترى أن السندى إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً ، ولو أقام في عليا تميم وفي سفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً . وكذلك النبطي القح .. يجعل الزاي سيناً . فإذا أراد أن يقول زورق قال سورت ، ويجعل العين همزة .. » (ص ٧٠) ، ومقدمة ابن خلدون ص ٤٣٤ وما بعدها «فصل في لغات أهل الأمصار» و ص ٦٤٩ وما بعدها «فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة منقطة مغايرة لغة مصر وحمير» وكذلك الفصول التالية لهذا الفصل

من ناحية اللفظ أو من ناحية الدلالة. أما كتب المعرب والدخيل فمن أشهرها :
كتاب الجواليقي ، ويدخل فيها البحوث المتناثرة التي نجدها في كتب النحو واللغة :

ولكننا - مع الأسف - لا نظفر لمصر بشيء ذي بال في أي من هذين
المجالين إبان فترتنا المبكرة . أما عن الجانب الأول فنحن نجد كتباً ألفت لتتبع
أخطاء قطر بعينه أو شعب عربي بذاته ، ومن ذلك « لحن العامة » للزيدي
(ت ٣٧٩ هـ) ، الذي تناول فيه لحن عامة الأندلس ، و« تنقيف اللسان
وتلقيح الحنان » لابن خلف الصقلي (ت ٥٠١ هـ) في لحن عامة صقلية ،
و« تقويم اللسان » لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في لحن عامة بغداد . ومع ذلك
لا نجد كتاباً يظهر في البيئة المصرية يعالج بعض مظاهر التغيير الذي حدث في
لغة مصر سواء اعتبر هذا تطوراً طبيعياً ، أو رمى بالخطأ . وحتى لو وجد شيء
من هذا النوع ، فلم يكن ليفيدنا كثيراً ، لأن مؤلفي هذا العصر اعتادوا أن
ينقلوا لاحقهم من سابقهم بدون تنبيه على ذلك . فما يتعرض له الواحد منهم
في كتبه ربما لا يمثل بيئته أدنى تمثيل ، وإنما يمثل بيئات أخرى لم يهتم بالتنبيه
عليها . وضرر مثل هذا النوع من البحوث المختلطة أكثر من نفعه . وأما عن
الجانب الثاني فكان الاتجاه نحو دراسة النقل والتعريب من اللغة الفارسية هو
الاتجاه الغالب ، ولا نجد إشارة إلى النقل أو التعريب من القبطية ، وبين أيدينا
كتاب « المعرب » للجواليقي يشهد بذلك . نعم هناك إشارات سريعة إلى التعريب
من لغات أخرى متعددة ، إلا أن معظم هذه الإشارات ألقى القول فيها على
عواهنه : و صدر عن غير ذي ثقة ، وعن أناس لا خبرة لهم باللغات التي
يتحدثون عنها ، ولذا لا يمكن الاعتماد على أقوالهم كما سبق أن بينا بالنسبة
للسيوطي في كتابه « المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية ...
الخ » . كذلك من الأمثلة المؤسفة للعمل المرتجل ذلك البحث الذي كتبه حمزة
فتح الله بعنوان « رسالة الكلمات الغير العربية (كذا) الواقعة في القرآن

الكريم ، ، والذي تنقصه دقة البحث العلمى وتمحيصه . ومن الأمثلة التى ذكرها هذا المؤلف للكلمات المستعارة من اللغة القبطية قوله :

الأولى والآخرة : القبط يسمون الآخرة الأولى ، والأولى الآخرة .

سيدها : زوجها بالقبطية .

بطائنها : ظواهرها بالقبطية .

وهكذا ::

وقد حاولت أن أعثر على آثار ذات بال فى مؤلفات اللغويين المصريين المبكرين فى أى من هذين المجالين ، أو فى مجال تحديد مراكز القبائل العربية التى استوطنت مصر ، وتسجيل لهجاتها ، وخصائص كل لهجة ، دون جدوى . وكل ما وجدته تصريحات مقتضبة متناثرة هنا وهناك ، لا تكاد تهتدى إليها وسط زحام الأبحاث اللغوية الأخرى . فمن ذلك ما ذكره أبو جعفر النحاس وهو كل ما عثرت له عليه بعد البحث والتنقيب الشديدين - من أن :

١ - المصريين يستعملون كلمة « إسباطة » (التى تحولت الآن إلى سباطة) بمعنى الكباشة أو العذق أو القنو (١) .

٢ - المصريين يستعملون كلمة « الجسر » بدلا من المسناة (٢) .

ولكنه لم يذكر لنا فى أى المستويات الكلامية تستعمل هاتان الكلمتان ؟ وهل هما أصل أجنبي أو لا ؟

٣ - وروى الفلقلشندى عن أبى جعفر النحاس أنه قال فى كتابه « صناعة الكتاب » إن « الديوان » اسم للموضع الذى يجلس فيه الكتاب وإنه بكسر الدال وإن فتحها خطأ . وحيث لم يكن هناك دلالة صريحة على أن هذا الخطأ كان شائعا فى مصر ، فمن المحتمل أن يكون من الأخطاء العامة ، أو غير الخاصة

(١) شرح معلقة امرئ القيس (تحقيق فر نكل ١٨٧٦) ص ٢٩ .

(٢) إعراب القرآن (معهد المخطوطات ١٥ تفسير) ص ١٨٠ .

بمصر ، وهو ما نرجحه بدليل ورود هذه الكلمة في غيره من الكتب التي عالجت أخطاء العامة أو الخاصة .

٤ - كذلك روى القلقشندي - عن نفس المصدر - أن الكتاب في عصر النحاس كانوا - لصعوبة باب العدد عليهم - يعيرون من أعرب الحساب . ومعنى هذا كثرة الخطأ في هذا الباب . وهي ظاهرة ملاحظة في كثير من النصوص المصرية التي عثرنا عليها لذلك العصر . ولكن - مرة أخرى - هي ظاهرة عامة ، وليست خاصة بمصر .

ويبدو أنه كان في عصر النحاس - وربما من قبله - حركة قوية بين المستعربين أو غير العرب ضد اللغة العربية ومن يتكلمونها أو يتعلمونها . ويبدو أن كثيراً من أناس ذلك العصر ضاقوا بقيود اللغة وقواعدها ، وعجزوا عن إتقانها وتذليل صعوباتها ، فرأوا أن مهاجمة اللغة أيسر من تعلمها ، والنيل منها أسهل من السيطرة عليها . وقد تكفل النحاس بنقل دعوى هؤلاء الشعوبية ، وانبرى للرد عليها وتفنيدها فقال : « وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلاً وتعدياً حتى إنهم يحتجون بما يزعمون أن القاسم ابن نجيم قال : النحو أوله شغل وآخره بغي . قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه شغل . وأول الحساب شغل ، وكذا أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل ؟ قال : وأما قوله : وآخره بغي ، إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حدقه صار فيه زهو ، واستحقر من يلحن ، فهذا موجود في غيره من العلوم من الفقه وغيره ، في بعض الناس وإن كان مكروهاً . وإن كان يريد بالبغي التجاوز فيما لا يحل فهذا كلام محال ، فإن النحو إنما هو العلم باللغة التي نزل بها القرآن ، وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم وكلام أهل الجنة وكلام أهل السماء . ثم قال بعد كلام طويل : وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس في علم النحو ، وأكثرهم تعظيماً للعلماء ، حتى دخل فيهم من لا يستحق هذا الاسم ، فصعب عليه باب العدد ، فعابوا

من أعرب الحساب . وبعدت عليهم معرفة الهمزة التي ينضم وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لا معنى لها (١) والذي يهمننا من هذا ما يسجله من وجود ضيق بين المتعلمين بقواعد اللغة ، وصعوبة أبواب النحو ، وما يستتبعه ذلك من محاولات لكسر تلك القيود ، والتخفف من قسوتها . وهو ما حدث بالفعل وكان سبباً من أهم الأسباب التي غيرت في شكل اللغة .

وقد وجد لكراع (على بن الحسن الهنائي المصري) إشارات خاطفة إلى بعض تعبيرات مصرية ، وإن كانت كلها عربية فصيحة ، أو عربية محرفة لا أثر للأجنبي فيها . ولكن لم يلتزم كراع أن يبين لنا في أى مستوى كلامي كانت تشيع هذه العبارات ، ولم يوضح صراحة ما إذا كانت هذه من اللهجات المحلية أو اللغة المشتركة . ومن ذلك قوله :

- ١ - ويقال للذى يوزن به الصنجة والعامة تقول السنجة .
- ٢ - الخطاف العصفور الأسود الذى تدعوه العامة عصفور الحنة .
- ٣ - يقال رف الحاجب اختلج .
- ٤ - يقال فش القفل إذا فتحه بغير مفتاح .
- ٥ - يقال فحم الصبي بفحم فحوماً وفحاماً إذا بكى حتى ينقطع صوته . (٢)

وهناك صعوبة أخرى تواجه من يريد بيان الخصائص اللغوية لعربية مصر فى تلك الفترة السحيقة ، وهى أن كل المادة التى بين أيدينا وصلتنا عن طريق الكتابة . ومن المعروف أن الرموز المكتوبة لا تمثل إلا قدرأ ضئيلاً من اللغة .

(١) انظر صبح الأعشى ١ / ١٧١

(٢) انظر - على سبيل المثال - المنجد فى اللغة لكراع (مخطوط) صفحات ١٣٦ و ١٣٧

فهي تخفى أكثر مما تظهر وبخاصة حين تستعمل الرموز الكتابية العادية لا الرموز الصوتية الدقيقة بعض الشيء . ولم يشذ عن ذلك إلا بعض نصوص قليلة عثر عليها في دير القديس مكاروريوس حيث كتبت بحروف قبطية تمثل الصوت المنطوق إلى حد كبير (١) .

وصعوبة أخرى هي عدم استطاعة القيام بمسح جغرافي لمناطق اللهجات في مصر ، وفصل اللهجات الإقليمية بعضها عن بعض ، أو عمل ما يمكن أن يسمى بالأطلس اللغوي ، نظراً لاختلاط المادة اللغوية التي وصلتنا من ناحية ، واندثار معظمها من ناحية أخرى ، وعدم إمكان تسجيل مادة جديدة لطول العهد بفترة دراستنا ، والتطور الكبير الذي يتوقع حدوثه بعد ذلك . ولهذا لم يكن هناك مفر من أن نعالج المادة اللغوية التي جمعناها باعتبارها وحدة واحدة ولا نشير إلى الخصائص المحلية أو الإقليمية إلا إذا كان في يدنا الدليل على ذلك .

وهناك صعوبة أخيرة هي أن الدراسات القديمة جميعها قد ألفت نقلها في جانب اللفظ المفرد وبناء الكلمة ، ولم يكن منها ما اهتم بنظام الجملة وجانب النحو والإعراب ولذلك يندر أن نجد إشارة إلى تغيير من هذا النوع .

(١) انظر :

Fragments of an Arabic M.S. in Coptic Script, ed. by G. Sobhy.

والمملو رقم ١ للجزء الأول من كتاب :

New Coptic Texts from the Monastery of Saint Macarius.

الفصل الثاني

مادة التحليل اللغوي

تتخذ مادة البحث التي اعتمدنا عليها في دراستنا اللغوية صوراً متعددة ، كما أن تاريخها محدد ، ومعروف وقتها الذي كتبت فيه بدقة .

وعلى الرغم من أننا اخترنا القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كقرن التحول النهائي في لغة الكتابة والحديث من اليونانية والقبطية إلى العربية ، فقد رأينا أن ندخل في التحليل اللغوي كتابات القرنين الثاني عشر والثالث عشر كذلك لعدة أسباب ، منها :

أولاً : امتداد الفترة الحصبة في كتابات الأقباط العربية إلى نهاية هذين القرنين .

وثانياً : لأن معظم المخطوطات وأوراق البردى العربية التي كشفت حديثاً تتعلق بفترة تمتد نحو سبعة قرون بعد الفتح العربي لمصر .

وثالثاً : لأننا رجحنا احتمال بقاء اللغة القبطية في بعض الأماكن النائية لمدة قرن أو قرنين آخرين ، ولمدة أطول في داخل الأديرة وبين الرهبان ، أو كلغة متعلمة بين العلماء الأقباط . ومعنى هذا أن اللغة القبطية ظلت خلال هذه الفترة أداة في يد بعض الناس للدرجة محدودة وإن لم يحرمها ذلك الحياة في عقول كثير من الباحثين والمثقفين من رجال الدين الأقباط . ومن الملاحظ أن معظم كتابات الأقباط العربية في تلك الفترة : قام بها رجال الدين أو العلماء

المتعصبون للغتهم وقوميتهم القديمة ، ممن كانوا يعرفون القبطية إلى جانب العربية . ومعنى هذا أنهم كانوا في كتاباتهم العربية متأثرين بثقافتهم القبطية ، وبمعرفتهم للغة القبطية وغيرها من اللغات الأجنبية ، كاليونانية والسريانية .
ومن أجل هذا لا يصح إسقاط القرنين الثاني عشر والثالث عشر من حسابنا إذا أردنا أن ندرس آثار اللغة القبطية على عربية مصر ، وأن نؤرخ لحركة التأثير والتأثر من كلا الجانبين على الآخر .

ولكى ندرس عربية مصر في تلك الفترة ، نحن في حاجة إلى نماذج عديدة تمثل المستويات المختلفة للغة . فما لاشك فيه أن لغة الكتابة تختلف عن لغة الحديث ، ولغة الكتابة نفسها تتفاوت من كاتب إلى كاتب ، وكذلك لغة الحديث تختلف من متكلم إلى متكلم . ولو جارينا علماء اللغة المحديثين لقلنا إن لكل شخص لغة خاصة ، ولكل متكلم لهجة معينة ، ولهذا فهم لا يرضون في تقسيمهم لمستويات اللغة بمستوى دون المتكلم الفرد نفسه . بل منهم من يذهب إلى أبعد من ذلك فيقسم العادة الكلامية للشخص إلى مستويات متعددة تختلف بحسب حالة المتكلم الراهنة : ودور الذي يلعبه في المجتمع . ومن السهل على المرء أن يميز في كلام الشخص الواحد بين عدة مستويات ، حين يتكلم مع أسرة صديقه ، أو مع غرباء ، أو مع أفراد ذوي مراكز اجتماعية مختلفة ، أو في مجال العمل ... الخ .

ولصعوبة هذا النوع من الدراسة أو استحالة بالنسبة للفترة التي ندرسها ، فضلاً عما يؤدي إليه من نتائج جزئية خاصة ، فإننا آثرنا أن نتجه في مجال دراستنا إلى الخصائص العامة ، وأن تكون نظرتنا دائماً كلية تصور ما يمكن أن يسمى باللغة أو اللهجة في خطوطها العريضة وظواهرها المشتركة .

والمادة المكتوبة التي اعتمدنا عليها في تلك الدراسة كثيرة ومتنوعة وتشمل ما يأتي :

أولاً : أوراق البردى العربية : وكان أول ما عثر عليه من هذه الأوراق

ورقتان مكتوبتان باللغة العربية في مكان قرب أهرام سقارة وذلك عام ١٨٢٤م . وقد سلمت الورقتان إلى قنصل فرنسا بالقاهرة يومئذ فاهتم بها وأرسلها للبارون سلفستر دى ساسى المستشرق المتخصص فنشر ما بالورقتين . وبذا بدأت دراسات أوراق البردى ترى النور ، وأخذ هذا النوع من البحوث يتطور منذ أوائل القرن العشرين حتى أصبح علماً مستقلاً له متخصصوه والمشتغلون به .

وبعد مضي خمسين سنة من الكشف السابق ، وجد بالفيوم كمية كبيرة من أوراق البردى نقل معظمها إلى المكتبات الأوربية ، ومن المحتمل أن تكون محفوظات دار الكتب المصرية من هذه البرديات متصلاً بهذا الكشف ، أو تكون جزءاً منه . ثم اكتشفت بعد ذلك مجموعات أخرى وجدها الباحثون عن « السباخ » بين تلال أهناس وإخميم والأشمونين والبهنسا وكوم أشقاو وميت رهينة وإدفو .. ومنها ما عثر عليه في خرائب القسطاط .

ومن الصعب أن نحدد عدد الأوراق البردية العربية الموجودة في مكتبات العالم الآن نظراً لعدم تمام الفهارس . ولكن يقدرها البروفسر جروهمان خبير البرديات العربية بنحو ستة عشر ألف قطعة موزعة على مكتبات كثيرة من دول العالم مثل فينا ومصر وتونس وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا والنرويج وروسيا وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية .

ويقول البروفسر جروهمان إن أوراق البردى العربية ذات الصبغة الأدبية قليلة بالنسبة لمقابلتها في البرديات اليونانية (١) . وتوافقها السيدة نابية أبوت في هذا الرأي إذ تقول : إن « وثائق البردى التي اكتشفت ونشرت معظمها تتعلق بالإدارة والاقتصاد . أما أوراق البردى الأدبية فنادرة جداً ، وهي عبارة

From the World of Arabic Papyri

(١) انظر جروهمان ص ٥ من كتابه :

عن شذرات متفرقة . وقد بذلت جهود قليلة جداً لدراستها حتى الآن (١) :
ومما عثر عليه في مجال الأدب ورقة من ديوان شعر ، وأبيات متناثرة ، وأحياناً
قصائد كاملة . كذلك عثر على قطع من كتاب في النحو وهي محفوظة في مجموعة
مكتبة شيكاغو (٢) :

وكثير من الوثائق التي عثر عليها وجد متلاصقاً متماسكاً إلى حد يقرب
من التحجر ، إلى جانب ما وصل متمزقاً كله أو بعضه بفعل الأوضة أو الرطوبة .
ولكن إلى جانب هذا توجد - لحسن الحظ - قطع سليمة يمكن قراءتها بسهولة .

وتغطي هذه الوثائق فترة تزيد على سبعة قرون من عام ٢٢ للهجرة
إلى عام ٧٨٠ هـ . وإذا كان لهذه الوثائق قيمة خاصة بالنسبة للمؤرخ ودارس
الحضارة الإسلامية فهي من الأهمية بمكان كذلك لدارس اللغة ، وهي ثروة
نفيسة من المادة اللغوية قلما يجود التاريخ بمثلها . ويمكن بدراسة هذه الوثائق
الوصول إلى نتائج لغوية وفلولوجية هامة سواء من ناحية أسلوب الكتابة
الكلاسيكية في تلك الفترة ، أو في أسلوب الكتابة الإدارية أو الرسائل
الخاصة ، أو الأسلوب العامي (٣) .

ويكفي للتدليل على قيمة هذه الوثائق أنها نقضت ما هو شائع بين الباحثين
من أن اختراع الإعجام تم على يد يحيى بن معمر في النصف الثاني من القرن
الأول ، فقد وجدت أقدم وثيقة بردي عربية وهي مؤرخة عام ٢٢ هـ وهي
تتضمن على نقط فوق الحروف : ش ، ز ، ذ ، خ ، ن .

وأدم الوثائق العربية التي رجعنا إليها تلك التي نشرها Adolf Grohmann
تحت عنوان :

(١) أنظر ناييه أبوت في مقدمة كتابها : Studies in Arabic Literary Papyri

(٢) جروهمان : المرجع قبل السابق ص ٥ - ١٠ .

(٣) أنظر جروهمان : المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية، كذلك مراد كامل

«حضارة مصر في العصر القبطي» ص ٧٠ .

1 — Arabic Papyri in the Egyptian Library.

2 — From the World of Arabic Papyri.

والتي نشرتها Nabia Abbott تحت عنوان :

1 — The Kurrah Papyri.

2 — Studies in Arabic Literary Papyri.

وإلى جانب هذا وذاك توجد مجموعة من النصوص القبطية عثر عليها في دبر
البلاغزة حققها الدكتور Kahle : وهي تغطي فترة محدودة جداً نحو
مائة سنة من ٦٧٥ إلى ٧٧٥ م . وهذه الوثائق وإن كانت قد كتب معظمها
بالقبطية ففيها نسبة نحو ٦ ٪ كُتبت باللغة العربية .

وإليك نماذج من هذه البرديات راعينا فيها التنوع لتشمل أكثر من مستوى
كلامي :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم ، من قرّة بن شريك إلى صاحب أشقوه .
فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فانظر الذي كان بقي على أسقف
كورتك مما فرض عليه عبد الله بن عبد الملك .. فعجل به مع رسولي ورسول
الأسقف . ولا توخرن من تلك البقية قليلا ولا كثيراً والسلم على من اتبع
الهدى .

وكتب في ربيع الأول سنة ٩٠ .

٢ — بسم الله الرحمن الرحيم . من قرّة بن شريك إلى صاحب أشقوه .
فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . فإن إبشادة بن أبنيلة قد أخبرني أن له
على أنباط (فلاحين) من أهل كورتك (خمسة) عشر ديناراً ، فزعم أنهم
غلبوه على حقه . فإذا جاك كتابي هذا ، وأقام البينة على ما أخبرني فاستخرج له ،
ولا تظلمن عبدك إلا إن كانت بينته غير ذلك فاكتب لي . والسلم على من
اتبع الهدى .

وكتب مسلم بن لبن ونسخ الصلت :

في صفر سنة إحدى وتسعين .

٣ - من قرّة بن شريك إلى بطرس جرجه القسطل (حاكم المدينة) .
قد قبضت منك المال الذي من مدينة « أهناس » عما بقآلك من الغرامة
ما أدرك عليك من الحباية ... الخ .

٤ - من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه . فإنّي أحمد الله
الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإنك قد علمت الذي كتبت إليك به من جمع
المال الذي قد حضر من عطا الجند و عيالهم و غزو الناس . فإذا جاك كتابي هذا
فخذ في جمع المال ... ثمّ عجل إلى بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول ،
ولا أعرفنك ما حبستنا بما قبلك ، فإن أهل الأرض قد فرغوا من الحرثة
و علموا ما عليهم ... فعجل عجل بما اجتمع عندك من المال فإنه لو قد قدم
إلى المال قد أمرت للجند بعطائهم إن شاء الله . فلا تكونن آخر العمال بعثا
بما قبلك ، ولا ألومنك في ذلك والسلم على من اتبع الهدى .

٥ - بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من قرّة بن شريك لأهل شبرا
بسيرو من كورة أشقوه ، إنه أصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين مائة دينار
وأربعة دنانير وثلثي (كذا) دينار عدداً ، ومن ضريبة الطعام أحد عشر إردب
قمح وثلث إردب .

وكتب راشد في صفر سنة ٩١ .

٦ - وهذا خطاب مؤرخ عام ٢٤١ هـ يتحدث عن هجوم الأسطول
البيزنطي على دمياط :

يأبا حفص . لو رأيت الناس فيه عندنا اليوم من التخليط والسخرة .
يؤخذ النواتية وغير النواتية . وكلمن قدروا عليه أخذوه . يدخلوا كل يوم
جماعة من كل موضع . أسأل الله الفرج من عند رحمته . والأمير - أيده الله -
قد خرج إلى المحلة ودمياط وهو أول يوم من مسرى ، وأخرج معه جماعة

من الجند . وذلك أنه ورد عليه كتاب من أمير المؤمنين - أعزه الله - يشدد عليه أن يريح . عندى رسم كتاب لا أقدر أن أكتب به إليك ... الخ ..

٧ - وهذه وثيقة من القرن الثالث الهجرى عن تسليم بضائع ودفع نقود :

بسم الله الرحمن الرحيم . حفظكم الله وأبقاكم وأمتع بكم وأتم نعمه عليكم ودفع السوء عنكم وعنا وعن جميع أمة محمد إنه على ذلك قادر برحمته . قد بعثت إليكم مع ميمون المكارى بصرة فيها اثنين وأربعين دينر شهرية لى . وفيها دينرين لحمد بن حبة . ومعها فى الصرة صرة لسلمن بن داود .. فانظرو إذا وصلت إليكم أن تثبتو إلينا بوصلمها إليكم إن شاء الله . وانظرو أن تشترو لى مندلين شقاق مختص ومندلين رباط مختص . وأنا باعث بتمام خمس مناديل حتا يكتفى ثلاثة رباط ومندلين شقاق جيد . فإن الشقاق الذى بعثت به وحيش جداً . فعليك بالجيد فإن الجيد كويس ... انظر حفظك الله يابا على ألا تشتري إلا الجيد من الشقاق فقد نفر الناس من الرحيش . وقد كتبت إليك غير كتاب يبعث إلى بالقلة الخائج فلم تفعل فيخنى على إلا ما عجلتها . واشترى لى أربعة قلال صغار للجارية تستقى بهم الماء فإنى أحتاج إليهم وتسرنى بذلك ...

٨ - وهذه وثيقة كتبت فى القرن الرابع الهجرى :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصل كتابك يا شيخى وسيدى .. وغنى ما ذكرته من الأحوال الذى شرحتها لى مما ذكرت من الخراب الذى نزل بناحيك عمرها الله ببقايك .. لقد كنت على قلق عظيم وارتيجاف شديد لحبس كتابك غنى وبطؤ خبرك على حتى .. ورد بعد ذلك كتابك فزال جميع همى .. وذكرت يا سيدى أيدك الله أمر القمح وشدة حاجتك إليه وأن أتسلف لك من عند عطا أو جبارة أو غيرهم ممن أعلم أن عندهم شيا . فوالله العظيم شاناه القوى سلطانه لقد عظم على مكاتبك لهم تسلمهم مثل هذا المقدار حيث

لم يكون عندي أنا شئ أعنيك به من سواهم ... وبالله العظيم لقد أحضرت عطا وجبارة وحسين وأولاد عتيق عبد الرحمن وأخوه وأخرجت لهم الدنانير وسألتهم أن يبيعوني لك المقدار الذي ذكرته بأى سعر أحبوه فبالله إن كان واحد منهم قر لى بمد واحد فضلاً عما سواه . وقاموا وبقيت الدنانير بين يدي . ووكلاك حضر مثل هذا .. فكيف تسمح نفوسهم يسلفوا شئ وياخذود وقت الغلة ...

٩ - وهناك إلى جانب ذلك مخطوطة فريدة من نوعها نشرها الدكتور جورجى صبحى تحت عنوان :

New Texts from the Monastery of Saint Macarius.

وتقع فى ٣٣ ورقة كاملة و ٦ ورقات ممزقة وورقة صغيرة ، وترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر . وأهم ما يميز هذه المخطوطة أن لغتها عربية مكتوبة بحروف قبطية ، ومثلة فيها أصوات العلة إلى جانب الأصوات الساكنة . وترينا هذه المخطوطة - إلى حد كبير - كيف كانت تنطق عربية مصر فى وقت كتابتها . ولغتها مزيج من العامية والفصيحة . وإليكم اقتباساً من هذه المخطوطة :

احفظ نفسك أن لا يسبى عقلك فى ذكر خطاياك القديمة . بل اذكرها واندم عليها لئلا يذهب منك الاتضاع . فإن ذلك ينقيك من الخطية . لا تكن مناقض تحب تقيم كلمتك لئلا يسكن فيك الشر . لا تجعل نفسك حكيم برأى نفسك لئلا تقع فى أيدى أعداك . عود لسانك يقول اغفر لى والاتضاع يأتيك . إذا جلست فى قلايتك (بيت خلوتك) فاهتم بهذه الثلاثة خصال ، دائماً أبداً : عمل يديك ودرس مزاميرك وصلاتك . اجعل فى نفسك وذكرك أن ليس بقالك فى الدنيا .

ثانياً : كتب ألفها علماء متخصصون فى الدراسات اللغوية أو الأدبية ،

ويمثل أسلوبها المستوى الرفيع فى الكتابة فى ذلك العصر . وقد اخترنا منها ما يأتى :

١ - « المكافأة » لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (ت نحو سنة ٣٤٠ هـ) الذى هاجر أبوه من بغداد إلى مصر وأصبح من جلة الكتاب بها .

٢ - « أخبار سيويه المصرى » لابن زولاق اللبثى المصرى (ت سنة ٣٨٦ هـ) :

٣ - « الرسالة » للإمام الشافعى . ومن المعروف أن الشافعى دخل مصر سنة ١٩٩ هـ ومات ودفن بها سنة ٢٠٤ هـ ، وقد ألف كتابه هذا بمصر . وقد وصف محقق الكتاب المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر أسلوب الشافعى فقال : « لغته حجة لفصاحته وعلمه بالعربية .. وأصل الربيع من كتاب الرسالة أصل صحيح ثابت ، غاية فى الدقة والصحة . فما وجدناه مما شذ عن القواعد المعروفة أو كان على لغة من لغات العرب لم نحمله على الخطأ ، بل جعلناه شاهداً لما استعمل فيه » .

٤ - مؤلفات علماء اللغة المصريين الثلاثة الذى اشتهروا فى مصر خلال القرن الرابع الهجرى وهم : كراع (ت سنة ٣١٠ هـ) ، وابن ولاد (ت سنة ٣٣٢ هـ) ، وأبو جعفر النحاس (ت سنة ٣٣٨ هـ) . وإليكم نصوصاً مختارة من هذه الكتب :

١ - من « المكافأة » لابن الداية :

وحدثنى أم آسية قابلة أولاد خمارويه بن طولون .. أنه تزوجها وأختها أخوان ، فأقبلت حال زوج أختها ، وأدبرت حال زوجها . قالت : وتوفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات .. قالت فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى . إذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى كذا وكذا استحياء من أن أقول لها هبى لى . ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه اشتها على صبيانى حلوى فى العيد . فصرت إلى أختى فقلت لها : أقرضينى ديناراً أعمل به للصبيان حلوى فى العيد . فقالت يا أختى تغيطينى بقولك أقرضينى ، وإذا أقرضتك من أين تعطينى . أمن غلة دورك أو بستانك ؟ لو قلت هبى لى كان

أحسن . فقلت لها أفضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحسب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقب . فتضحكت وقالت : يا أختى هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النوكى . فانصرفت عنها أجر رجلاً إلى منزلى .

٢ - من « أخبار سيويه المصرى » لابن زولاق :

وسمعت سيويه يقول وقد جرى ذكر ابن المدبر عامل خراج مصر فقال : لقد بلغنى عنه أنه كان سائراً فى جمعه وعديده ، ورجاله وجنوده ، حتى وقفت له امرأة معها أطفال فقالت له : هؤلاء أطفال فلان وقد طال حبسه وهو فقير . فالتفت إليها بفظاظة وغلظة وقال : لا يخرج من الحبس إلا بأداء ما عليه .. فأنكر كل من حوله الكلام فى أنفسهم . فلم تمض جمعة حتى قبض عليه أحمد بن طولون وسلمه إلى محمد بن هلال عامل خراجه وقال : قيده وغله وألبسه جبة صوف منقعة فى دهن الأكارع مختومة ، وأوقفه فى الشمس على مزبأة على باب دارك . ففعل به ابن هلال ذلك .

٣ - من « المقصور والمدود » لابن ولاد :

فأما المقصور الذى يسمى منقوصاً فهو ما كانت ألفه التى فى آخره مبدلة من ياء أو واو وانفتح ما قبلها ، وكانت فى موضع حركة فأبدل منها ألف نحو ملهى ، ألفه مبدلة من واو لأنه من اللهو ، ومرمى ألفه مبدلة من الياء لأنه من الرمى . والأصل فيها ملهو ومرمى ، فلما تحركت الواو والياء وانفتح ما قبلها أبدل منهما ألف . وكذلك عصا ورحى .. وإنما سموا عصا ورحى وما شاكل ذلك منقوصاً .. من أجل أن الألف أبدلت مكان الياء والواو .. فلم يدخلها رفع ولا نصب ولا جر .. فهذا وجه نقصانها .

٤ - من كتاب « المنجد » لكراع :

قال أبو الحسن على بن الحسن الهنائى : هذا كتاب ألفته فيما اجتمعت عليه

الخاصة والعامّة من الألفاظ التي عمّت مرّاتها وخصت معانيها ، وجعلته
سته أبواب :

الباب الأول منها في ذكر أعضاء البدن من الرأس إلى القدم .

الباب الثاني في ذكر صنوف الحيوان من الناس والسباع والبهائم والهوم .

الباب الثالث في ذكر الطير الصوائد منها والبعاث وغير ذلك .

الباب الرابع في ذكر السلاح وما قاربه .

الباب الخامس في ذكر السماء وما يليها .

الباب السادس في ذكر الأرض وما عليها . وفي هذا الباب ٢٨ فصلا
على عدد حروف الهجاء من الألف إلى الياء . وأثبتّ في كل باب منها ما قصدت
له من الحروف المتشابهة بأجناسها وما سنح من الشواهد عليها مما يكون فيه
الدلالة دون الإكثار والإطالة . وبالله التوفيق والتسديد ومنه العون والتأييد .

ثالثاً : كتب ألفها علماء أقباط ظلوا محتفظين بدينهم ، وتعلموا اللغة

العربية لسبب أو لآخر وأتقنوها ، ولكن ظلت كتاباتهم تعكس خصائص
معيّنة وتبدو عليها المسحة الأجنبية . وقد اخترنا من بين هؤلاء العلماء :

١ - سويرس بن المقفع (القرن ٤ هـ) في كتابه : « سير الآباء البطارقة » .

٢ - سعيد بن بطريق (القرن ٤ هـ) في كتابه : « التاريخ المجموع
على التحقيق والتصديق » و « البرهان » .

٣ - الشيخ أبو صالح الأرمني الذي هاجر إلى مصر واستوطن بها
(القرن ٦ هـ) وله كتاب مشهور في التاريخ .

٤ - مجموعة من العلماء الأقباط وجدوا في القرنين ٦ و ٧ هـ وتركوا
مؤلفات باللغة العربية معظمها يتناول النحو القبطي والتعاليم المسيحية . وعلى رأسهم :

(أ) أولاد العسال . وأصلهم من بلدة سدمنت من صعيد مصر من عائلة رجل اسمه أبو البشر يوحنا الكاتب المصري . وقد شغل بعض أولاد العسال مناصب كبيرة في الحكومة . وألفوا كتباً في الديانة المسيحية باللغة العربية . وترجموا بعض الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية ، وألفوا بعض الكتب في الغرض المتقدم . ويبدو من كتبهم أنهم أخذوا يحظ وافر من الثقافة الإسلامية . واشتهر بينهم الصني ابن العسال وله مجموع يسمى « المجموع الصفي » . وهو كتاب ضخيم ألف في فقه المذهب الأرثوذكسي ، وقد رجعا إليه . وللأسعد ابن العسال أرجوزة في المواريث جاء فيها :

الشكر لله الوجيه الذات سبحانه مثلث النصفات
أحمده حمدا كما هو أهله إذ فاض بحر جوده وفضله
أزيد في التمجيد والتسبيح لابن الإله السيد المسيح
ومنها :

بأيها الطالب علم الشرع في الإرث خذ مختصرا من فرع
اسمع هديت أفضل السبيل جملته نظما بلا تفصيل
ابداً بما يصلح للأكتفان والقبر والحمال والتربان
أوف الدينون قبل أن تقسما فالشرع قد صيره مقدما

والأبي الفضل بن العسال معجم سماه « السلام المتقى والذهب المصفى » . وهو معجم قبطي عربي رجعنا إليه . وللمؤمن بن العسال كتاب في نحو اللغة القبطية سماه « المقدمة » رجعت إليه .

(ب) أنبا يزانس (يوحنا) أسقف سمبود المشهور باسم السمبودي ، وله مقدمة أجرومية و سلم (مجموع كلمات) . وقد رجعت إلى مقدمته في نحو اللغة القبطية .

(ج) الوجيه القليوبي الذي ألف كتاباً أسماه « الكفاية في نحو اللغة القبطية » ،
وقد رجعت إليه : أ

(د) الشيخ الرئيس ابن كاتب قيصر الذي ألف كتاباً في نحو اللغة القبطية
سماه « التبصرة » ، وقد رجعت إليه .

(هـ) ابن الدهيرى الذي ألف « مقدمة في نحو اللغة القبطية » رجعت إليها .

(و) ابن كبر شمس الرياسة أبو البركات الذي ألف « السلم الكبير »
وهو في تفسير كلمات قبطية بالعربية ، مرتبة على المعانى وهى على
أبواب . وقد رجعت إليه كذلك . وله إلى جانب ذلك مجموعة من
الخطب الدينية . ويبدو من مؤلفاته أنه واسع الاطلاع على التاريخ
والأدب العربى وعلوم اللغة العربية .

والظاهرة التى تلفت النظر في مؤلفات هؤلاء أن معظمهم لم يكن متمكناً
من اللغة العربية : وكان أسلوبه ركيكاً أو أشبه بالأسلوب الدارج منه بأسلوب
الكتابة ، وإن تفاوتوا في ذلك بشكل ملحوظ . ولم يشذ عن هذه القاعدة
إلا القليلون جداً انذين يصعب تمييز كتاباتهم من كتابات العرب أو المسلمين .
ولكثرة ما ظهر من إنتاج في هذه الفترة سعى بعضهم القرنين الثانى عشر
والثالث عشر الميلاديين (٦ و ٧ هـ) بالعصر الذهبى لآثار الأقباط الفكرية .

وإليك نماذج مختلفة لكتابات هذه المجموعة :

١ - من « المجموع الصفوى » لابن العسال :

باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد ، له المجد دائماً إلى الأبد .
أمين . المجد لله الذى شرفنا بأفضل الإيمان والأعمال ، وثقف أفعالنا الظاهرة
والباطنة بشريعته المبدأ والكمال . وبعد : فإن هذا الكتاب مجموع من الكتب
الإلهية ، والقوانين البيعية ، ومما فرعه العقل عليها : ورده القياس إليها ،

جمعاً يتخاو مع الاختصار من الإخلال : ويجمع بين فائدتي التفصيل و الإجمال .
أعتضد فيه بمجموعات جمعت ببصيرة وتوفيق واجتهاد ، وأنخب من
موضوعات وضعها من له في التصنيف خبرة وتحقيق واعتقاد .

٢ - من « سير الآباء البطارقة » لابن المقفع :

فشال الدبوس ليضرب أبي على رأسه فقدم رأسه إليه . فلما أراد أن
يضربه صاحوا عليه جماعة من أصحابه المستخدمين : ولم يدعوه يضربه .
وكان جميع العسكر يقولوا بلسانه حقاً إن هذا الأسقف نعم الخادم لربه .
ثم جاء رسول أبي قائلاً ادخلوا بجمعهم فقد استدعاهم الملك ، فدخلنا جميعاً
فكان مروان جالس على شاطئ البحر .. فأمر أن يجعلونا على يساره في ناحية
مفردة ، وأمر أيضاً بإحضارنا وتسليمنا إلى قوماً آخرين غير الذين جابونا
من الإسكندرية .. فلما حميت الشمس أعد لنا ذلك الأمير آلة العذاب ..
وحمل على كل مركب ثمانين رجل .. وكانوا الحراسانيين قد جابوا مراكب
عدة إلى مصر ، فلما جاءت عشرة ساعات من ذلك اليوم تقدم إلى يزيد
الذي نحن عنده ... إلخ ..

٣ - من « تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني » :

ورجع طلع إلى الأب البطرك .. فقال له البطرك إيش رجع جانبك
إلى عندي يا محروم بهذا الزى المغبر عن صنعتنا ، ومد يده إلى رأسه وطرح
البرطلة .. وإن أحد تلاميذ البطرك أعاد البرطلة على رأسه فصعب ذلك على
البطرك .. وقام من عنده وخرج مخزى لا يعرف كيف يمشي .. ثم إن بطرك
الملكية شيعه دير القصير وأقام به هو وأصحابه ... إلخ .

٤ - من « مقدمة في نحو اللغة القبطية » لابن الدهيري :

الحمد لله العظيم العلي ، القديم الأزلي ، ذي الطول المتين ، والفضل المبين ،
الذي أصفى موارد حكمه ، وأضفى ملابس نعمه ، للعاملين والعاملين ، وأسدل

جلايب كرمه ، وأسبل شآبيب ديمه . على العاكفين العارفين ، وأنار بصائر
أولى الهداية بنور الحقيقة ، وعلم اليقين ، وعم فضله ، وخص فيضه للعاملين
 والمرسلين ، وقسم المواهب بين براياه . على قدر استعداد التابدين والقاتلين ،
وميز الإنسان بالعقل والنطق عن بقية الحيوانات غير الناطقين ...

٥ - من « مقدمة في نحو اللغة القبطية » للسمنودي :

كان لما كانوا آباء فضلاء لأجل عدم تفسير اللسان القبطي قد تقدموا
وعملوا سلماً للتفسير ، وجمعوا فيه جميع الكلام من الأسماء والأفعال ،
وقصدوا بذلك كمال معرفة التفسير ، وإن بعض الناس لما استكثروا مقدار
جملة الكتاب وأنه لا يحصل لهم قصد في جزء منه دون حفظ جميعه فلذلك
ملوا وكسلوا قضى الحال إلى أن أعمل تفسير كلام كتب البيعة أعنى الحديثة
وهم الأناجيل المقدسة ورسائل بولص الرسول .. وما انضاف إليهم مساقاً
على فصوله أولاً فأولاً .. وجعل لإنجيل يوحنا فاتحته لأجل سهولة كلامه ليسهل
للطالب القصد بذلك .

رابعاً : متفرقات ونماذج نثرية شعرية متناثرة في كتب الأدب والتاريخ واللغة

أذكر من بينها «صبح الأعشى» للقلقشندي، و«الولاية والقضاة» للكندي ،
و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي ، ومن أمثلة ذلك :

١ - كتب ابن عبد كان على لسان أحمد بن طولون إلى ابنه العباس :

من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ،
الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادي لظوره ، الجاهل لقدره ، الناكص
على عقبه .. سلام على كل منيب مستجيب ، تائب من قريب .. أما بعد
فإن مثلك مثل البقرة تثر المدينة بقرنيها ، والنحلة يكون حثنها في جناحيها .

وستعلم - هيلتك اخوابل - أيها الأحمق الجاهل الذي ثنى على الغي عطفه ..
أي مورد هلكته سلكت ...

٢ - من الشعر الذي قيل في قضية القاضي العمري :

قال طاهر القيسي :

ولقد قمعت بني الحباث عندما راموا العلا وتخونكوا وتعربوا!
فرددتهم قبطا إلى آباءهم ونسيب أصلهم الذي قد غيبوا!

وقال المعلى الطائي يهجو القاضي العمري :

كم كم تطول في قراتك والخورُ يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
فاشربْ على صرف الزمما ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم عربا فزوجهم بناتك

الفصل الثالث

المؤثر الأول: اللغة القبطية

إن حياة أى لغة بمعزل عن التأثيرات الخارجية شىء خيالى ربما لم يتحقق لأى لغة على مدى تاريخها الطويل . ومهما فرض من قيود ووضع من سدود حول اللغة ومتكلميها فإن الاحتكاك بالعالم الخارجى لابد أن يحدث ، والتبادل اللغوى لا مفر من أن يتم .

وحيث يحدث – لسبب أو لآخر – أن تلتقى لغتان أو أكثر فى مكان واحد ، لا يمكن أن يتصور وقوف كل منهما بمعزل عن الأخرى تقول لا مساس ، وإنما الذى يحدث أن يبدأ الاحتكاك بينهما ، وأن يتبادلا التأثير والتأثر . وبعد فترة تطول أو تقصر قد تتمكن إحداهما من القضاء على الأخرى والحلول محلها ، وقد لا يحدث هذا وتظل اللغتان جنباً إلى جنب تتعرض كل منهما لسهام الأخرى دون أن تقضى عليها .

ولا يعنى انتصار لغة وانهازم أخرى أن اللغة المنهزمة تموت وتتلاشى من الوجود نهائياً ، فهى ربما تختفى كلغة متكلمة عامة وتظل مستعملة فى مجالات ضيقة ، وبين عدد محدود من الناس لمدة طالت أو قصرت . كما لا يعنى انهزام لغة أنها تموت موتاً كاملاً فهى تظل حية حياة جزئية فى شكل بقايا وآثار تختلط باللغة المنتصرة ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ منها . وقد حدث هذا – على سبيل المثال – مع اللغة العربية حين رحلت إلى بلاد الفرس وقام الصراع بينها وبين الفارسية ، فقد خرجت العربية منتصرة فى هذا الصراع ، ومع ذلك فقد

أصاها قدر كبير من التغيير الذى يميز عربية ما وراء نهري دجلة والفرات من سائر العربيات . وحدث هذا أيضاً مع اللغة العربية حين وفدت إلى مصر مع العرب ، واختلطت باللغات المحلية التى كان أهمها القبطية ثم اليونانية . فحين استوت اللغة العربية على سوقها ، وقهرت أولاً اللغة الرسمية والثقافية وهى اليونانية . ثم اللغة الوطنية وهى القبطية : تحملت آثاراً من كل منهما ، وظهرت عليها ملامح من كلتا اللغتين . ويبدو أن التأثير اليونانى على عربية مصر كان محدوداً ، إذ لم يتعد إقراضها بعض المفردات ، وبخاصة فى مجال المصطلحات العلمية ولغة الدواوين ، لأنها لم تكن لغة متكلمة بقدر ما كانت لغة مكتوبة ، ولم تشع على السنة العامة شيوع اللغة القبطية . ومعظم الصراع اللغوى يتم بين لغتين حيتين متحركتين تريد كل منهما السيطرة على لغة الحياة العامة . واحتكار ميدان الحديث والتخاطب العادى . وفضلاً عن ذلك فإنه من المستحيل - بالنسبة لكثير من الكلمات - القطع بأن الإقراض من اليونانية قد تم فى مصر ولم يتم فى بلد عربى آخر ، وأنه خاصة تميز عربية مصر من سائر العربيات . وصعوبة أخرى تمس التأثير اليونانى فى عربية مصر يتمثل فى صعوبة الفصل بينه وبين التأثير القبطى . وذلك لأن اللغة القبطية حين جاءت إلى معركتها مع العربية كانت قد اقترضت كلمات كثيرة من اليونانية ، وبخاصة فى مجال الطقوس والعبادة وحياة الرهبنة . وحين ترجمت الكتب المقدسة إلى اللغة القبطية رؤى المحافظة على كل الكلمات اليونانية التى لها دخل بالعقيدة أو تعبر عن أفكار مسيحية . ولذلك نجد من يبحثون فى التأثير الأجنبى على عربية مصر يدمجون اللغتين القبطية واليونانية ، ويتحدثون عنهما معاً فى وقت واحد . وخير مثال على هذا ما فعله الدكتور جورجى صيحي فى بحثه المعنون . :

Common Words in the spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin.

فلهذا كله سنركز حديثنا على الأثر القبطى . وسنكتفى بالإشارة العابرة إلى التأثير اليونانى حين نملك الدليل عليه .

فإذا أردنا الحديث عن التأثير القبطي وجدنا شقة الخلاف تتسع بين الدارسين حول مداه على عربية مصر إلى حد التطرف في الاتجاهين المتضادين. ففريق بالغ مبالغة و واضحة في ادعاء الأثر القبطي : وأخذ بتصيد أى فرصة لإثبات نفوذه . كما حاول تفسير كثير من الملامح الخاصة بعربية مصر على أنها من آثار اللغة القبطية . وفريق آخر أخذ الطرف المضاد . وبالغ في التقليل من آثار القبطية على العربية ، و حاول تفسير كل ظاهرة يشتم منها رائحة القبطية تفسيراً يخرجها عن هذا المجال . وهناك فريق ثالث توسط بين الرأيين : وسلك مسلكاً معتدلاً لا تحيز فيه لأحد الجانبين ولا تعصب فيه لإحدى اللغتين ضد الأخرى . ويوجد فريق رابع من الدارسين مس القضية مسأ خفيفاً وأشار إشارات عابرة إلى التأثير القبطي وأعطى أحكاماً مبتسرة ليست مبنية على التحليل العلمى لواقع اللغوى . وسنعرض في إنجاز هذه الانجاهات الأربعة ثم نعقب برأينا فى الموضوع .

أما الفريق الأول : فيمثله الدكتور جورجى صبحى الذى اشتهر بأبحاثه الإضافية فى هذا الموضوع . ونشره لكثير من الوثائق والبرديات الهامة . ولكنه مال كل الميل فى أحكامه . وحاف حين أراد أن ينسب كل شىء إلى القبطية . ومما قاله فى هذا الموضوع :

١ - بفحص مفردات اللغة العامية العربية فى مصر يفاجأ الشخص بأن نجد عدداً عظيماً من الكلمات التى يمكن ردها بسهولة إلى أصلها المصرى القديم أو أصلها القبطى (١) .

(١) انظر جورجى صبحى ص ٢٢ من كتابه :

Common Words in the Spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin.

و ص ٧٢ من مقاله :

Studies of Ancient Egyptian in Modern Dialects

المنشور بمجلة : Ancient Egypt عام ١٩٢١ .

٢ - من الممكن أحياناً ترجمة جملة صعيدية إلى القبطية ترجمة حرفية بدون تغيير نحوي ، أو عمل أى تعديل في نظام الجملة (١) .

٣ - استعمال القبطية بجانب اللغة العربية في مصر لمدة طويلة من الزمن قد ترك آثاراً قبطية كثيرة في اللغة العربية الدارجة ككلمات وتعابير وتراكيب أثرت على تعابير وتراكيب اللغة العربية الدارجة في مصر ، حتى في نطق حروف هذه الأخيرة ، وبذا أصبحت لغة مصر الدارجة مختلفة بالمرّة عن سائر لهجات اللغة العربية المستعملة في الأقطار المجاورة لمصر ، ليس فقط في معجمها ، بل في نحوها و صرفها (٢) .

٤ - من الغريب أن الاختلاف الحالى بين لهجات اللغة العربية الدارجة (في مصر) يوافق جغرافياً الاختلاف بين اللهجات القبطية القديمة (٣) .

٥ - كما يتمثل تطرفه في القوائم الطويلة التى قدمها في كتاباته المختلفة لكلمات شائعة في عربية مصر ادعى أن لها أصلاً قبطياً (٤) .

ويشاركه في القوائم الطويلة باحث قبطى آخر هو الأستاذ جرجس فيلوثاؤس عوض (٥) . كما يشاركه في مبالغاته في مدى التأثير القبطى على اللغة العربية مستشرقون كثيرون منهم D. Prince الذى يقرر أن هناك أثراً كبيراً للقبطية على العربية المصرية يشمل نظام الجملة والمفردات وطريقة النطق ، ومثل E. Littmann و F. Praetorius الذين صرحوا بوجود نفوذ

(١) نفس المرجعين ونفس الصفحتين السابقتين .

(٢) قواعد اللغة المصرية القبطية للدكتور جورج صبحى ص ٣ و ٤

(٣) المرجع السابق ص ٤ و ٨ .

(٤) انظر مثلاً ص ٧٤ وما بعدها من : Ancient Egypt 1921

وبحثه ... Common Words ، وبحثه :

The Persistence of Ancient Coptic Methods of Medical ...

(٥) انظر انجملته القبطية السنة الأولى ص ١٤٠ وما بعدها ، وص ٣٦٩ وما بعدها ، وص ٤١٢

وما بعدها ، وص ٤٧٠ وما بعدها ، والسنة الثالثة ص ٢٩٧ وما بعدها .

قبلى كبير وبخاصة في مجال النحو ونظام الجملة : وردوا عدداً من خصائص اللغة العربية المصرية إلى أصول قبطية .

وسوف نناقش هذا وغيره حينما يأتي دور إبداء رأينا في الموضوع .

وأما الفريق الثاني : فيمثله المستشرق المشهور De Lacy O'Leary (١)

الذى ينفي هذا التأثير بشدة. ويخالف Stern, Praetorius, Littmann مفسراً الأمثلة التى ذكروها على أنها ذات أصل قبطى - تفسيراً عربياً صرفاً . ويؤمن أوليرى بأن لهجة الصعيد لا تعكس نفوذاً قبطياً - كما يزعم بعضهم - وإنما تعكس نفوذاً بلدياً عربياً . ومن أنكر وجود أى تأثير نحوى للغة القبطية على عربية مصر المستشرق E. Galtier فى بحثه : (٢)

De l'influence du Copte sur l'Arabe d'Egypte

وأما الفريق الثالث : فيمثله الدكتور ولسن بشاى الذى درس القضية

دراسة موضوعية ونظر إلى جميع أطرافها نظرة علمية صرفة ، وانتهى إلى محدودية التأثير الصوتى للهِجَة القبطية الصعيدية على اللهجة العربية المصرية المستعملة فى الصعيد ، وانعدام تأثير اللهجة القبطية البحرية على لهجة القاهرة . أما فى مجال النحو فقد أثبت أربعة أمثلة فقط للتأثير القبطى على المصرية الدارجة وعقب ذلك بقوله : « وهذه النتيجة تدل على أن النفوذ القبطى على العامية المصرية من جانب النحو قليل جداً بدرجة تثير الانتباه » . وأما فى مجال المفردات فقد جمع الكاتب أكثر من مائتى كلمة ادعى غيره اقترانها من اللغة القبطية فوجد من بينها ١٠٩ كلمات فقط وافق على اقترانها ، أما الباقى فمعظمه تمكن من رده إلى أصله العربى ، وبعضه وجدته مقترناً من لغات أخرى غير القبطية . وانتهى بفحصه إلى النتيجة الآتية : « إن معظم الكلمات القبطية المقترنة تتعلق

Notes on the Coptic Language

(١) انظر

Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale

(٢) انظر

الجزء الثانى سنة ١٩٠٢ صمحه ٢١٢ وما بعدها .

بكلمات خاصة بالكنيسة . وكلمات تستعمل في القرى النائية وغير معروفة لكثير من المصريين . أما الكلمات القبطية المشتركة الموجودة في المصرية الدارجة فقليلة العدد (١) .

ونحن وإن كنا نوافق الباحث في نظريته العامة فإننا نخالفه في بعض التفاصيل كما سيأتي في موضعه .

وأما الفريق الرابع : فيمثلّه يوهان فوك الذي قال في كتابه « العربية » :

« بينما أثرت الفارسية في عربية العراق تأثيراً بعيد المدى وكثرت في اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة ، فإن أثر القبطية في اللهجة العربية جد ضئيل » : والدكتور عبد الرحمن أيوب الذي قال في كتابه « التطور اللغوي » : « وإذا كان من الصحيح أننا نتكلم اليوم لهجة عربية فمن الصحيح أيضاً أن كثيراً من الخصائص القبطية قد تسربت إلى هذه اللهجة » . واكتفياً بذلك دون أن نحاول مناقشة القضية مناقشة علمية . أو يقدموا الدليل على ما قالاه .

أما نحن : فنرى أن التأثير القبطي على عربية مصر لا يمكن إنكاره . وأن فترة التأثير القوي كانت في القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى حينما كانت اللغتان حيتين ومتكلمتين . وقبل أن نبدأ دراستنا التفصيلية لهذا الموضوع نحب أن نوضح المبادئ الآتية :

١ - أن بعض التأثيرات القبطية قد غزا العربية الفصحى المشتركة . وذكر في كتب اللغة الموثوق بها (٢) . وبعضها انتقل إلى عاميات أخرى غير عامية مصر .

(١) النظر : Notes on the Coptic Substratum in Egyptian Arabic
ولفلس المؤلف رسالة لها درجة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٤ بعنوان :
The Coptic Influence on Egyptian Arabic .
ولكنني لم أتمكن من الحصول عليها .
(٢) سبق التعليل لذلك بكلمات مثل « قيس » و « صداع » و « مشم » (النظر التمهيد) .

٢ - أن قضية التأثير والتأثر من القضايا الشائكة التي يعسر أو يستحيل في بعض الأحيان القطع فيها برأى . فرب كلمة عربية بظن أصلها القبطى يظهر فيها انعكس أو يظهر لها أصل أجنبى آخر تكون اللغتان قد استعارتاها منه سواء عن طريقين منفصلين أو عن طريق إحداهما . وربما يمكننى أن أمثل لذلك بكلمة « سفتجة » بمعنى « إيصال » التي وردت في وثيقة عربية من وثائق البردى المخفوظة بدار الكتب المصرية . والتي يرجع تاريخها إلى عام ٣٤٦ هـ . فواضح أنها كلمة غير عربية . ولكنها في الحقيقة ليست قبطية وإنما فارسية (١) . ومن أمثلة ذلك الكلمات اليونانية الأصل الموجودة في كتاب اللغتين القبطية والعربية . إذ لا يمكننا أن نقطع هل كانت قد دخلت العربية عن طريق القبطية أو عن اليونانية مباشرة . كما لا يمكننا أن نقطع ما إذا كانت هذه الكلمات قد دخلت العربية عن طريق مصر أو عن طريق بلد عربى آخر . ورب كلمة نجدتها في العربية واليونانية فنظن أن أصلها يونانى وهى في الحقيقة عربية أو سامية . وقد ضرب الأب أنستاس مارى الكرملى أمثلة كثيرة هذا في بحثه المعنون « تناظر العربية واليونانية » الموجود بمجلة مجمع اللغة العربية . الجزء الأول .

٣ - أن اللغة المصرية الحديثة نتاج احتكاك بلغات أجنبية كثيرة مثل اليونانية والتركية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، ولاشك أن كلا من هذه اللغات قد ترك آثاره عليها . ومن أجل هذا فإن الكلمات غير العربية المستعملة في المصرية الحديثة لا يمكن ردها إلى القبطية إلا بعد استبعاد آثار اللغات السابق الإشارة إليها .

٤ - أن كثيراً من الخصائص التي تتميز بها عربية مصر عن سائر العربيات مرده أسباب أخرى غير النفوذ الأجنبى وغير التأثير القبطى مثل

(١) انظر كتاب تفسير الألفاظ الدينية في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه لفقير صوبيا

التطور الطبيعي للغة ونفوذ اللهجات العربية . ومن الثابت تاريخياً أن القبائل العربية التي وفدت إلى مصر كانت كثيرة ومتنوعة وأنها حملت معها سمات لهجاتها وخصائصها . وكثير من هذه السمات والخصائص لم يسجل ولم يدرس ، وبالتالي فمعرفةنا به محدودة أو معدومة . ورب ظاهرة نظن أصلها القبطي يرجع أصلها إلى لهجة عربية ، أو يمكن ردها بعد التدقيق إلى قبيلة عربية معينة ، على نحو ما سنذكر فيما بعد .

هـ - أن درجة تأثير اللغة القبطية على عربية مصر قد تفاوتت من مستوى لغوي إلى مستوى آخر : وربما من كاتب إلى كاتب ومن متحدث إلى متحدث . ولكنا في دراستنا سنقسم المستويات اللغوية إلى ثلاثة . ونعالج كلا منها على حدة . هذه المستويات هي :

(أ) المستوى الأدبي ، أو اللغة الكتابية للأدباء . وهذا يتمثل في كتابات كبار الأدباء الذين شغلوا مناصب رؤساء دواوين الإنشاء . والتي كانت تتبع مباشرة الوالي أو الخليفة . كما يتمثل في كتابات المتخصصين في اللغة العربية وأشعار الشعراء التقليديين ورجال الأدب بعامة .

(ب) المستوى نصف الأدبي . أو اللغة الكتابية لغير المتخصصين . وهذا المستوى تمثله كتابات صغار الكتاب وموظفي الحكومة في تسجيلهم للوثائق وكتابتهم للعقود ونحو ذلك . كما تمثله كتابات غير المتخصصين الذين خلفوا كتابات باللغة العربية دون أن يحققوا مستوى رفيعاً في تعلمهم اللغة العربية . والأمثلة على هذا المستوى قد حفظت لنا في شكل وثائق من أوراق البردي . كما حفظت في شكل مؤلفات وصلتنا مما كتبه المؤلفون الأقباط باللغة العربية مثل سويرس بن المقفع وسعيد بن بطريق .

(ج) المستوى العامي ، أو مستوى لغة التخاطب . وبالنظر إلى التأثير القبطي ، فإننا قد اعتبرنا كل الآثار القبطية الموجودة في لغة الكتابة

لهذه الفترة - اعتبرناها موجودة كذلك في لغة الحديث . كما اعتبرنا الآثار القبطية الموجودة في لغة الحديث الآن تمثل الآثار القبطية التي كانت موجودة في فترة دراستنا ، إذ أننا نفترض أن هذه الآثار إنما ترجع إلى القرون الأولى للهجرة حينما كانت اللغة القبطية لا تزال لغة حية متكلمة ، وحينما كان لها نفوذ على اللغة العربية .

٦ - أننا في دراستنا للأثر القبطي سنفصل بين ثلاثة أنواع من التأثيرات وسنحاول أن نتبع كلا منها على حدة . أما هذه الأنواع الثلاثة فهي :

(أ) التأثيرات الصوتية .

(ب) التأثيرات النحوية والصرفية .

(ج) التأثيرات في مجال المفردات .

وإليكم التفصيل :

(أ) التأثير الصوتي

من الصعب أن نتبع التأثير القبطي على الأصوات في لغة الكتابة على لمستويين الأول والثاني ، ولهذا فسنعصر حديثنا على المستوى الثالث ، وهو مستوى لغة الخطاب .

لاشك أنه من أهم الصعوبات التي تصادف المتحدث بلغة أجنبية ، نطقه للأصوات غير المألوفة ، أو غير الموجودة في لغته . ويزداد الأمر صعوبة إذا بدأت المحاولة في سن متأخرة بعد تعود الجهاز النطقى النطق بطريقة معينة . ولهذا فنحن نتصور أن الوضع في المرحلة الأولى من الاختلاط كان هكذا : يتحدث العربي بطريقة الخاصة غير المشوبة بعنصر أجنبي ، أما القبطي الذي تعلم اللغة العربية فكان يتحدث بلهجة مخلوطة بلكنة أجنبية ، أو بعبارة أخرى

كان « يقبط » نطقه العربي . ومع ذلك فنحن نتصور أن نطق القبلي للغة العربية لم يتخذ في يوم ما مقياساً للغة الحديث ، ولم يقبل كنموذج للصواب اللغوي . والسؤال الآن : هل تركت اللغة القبطية أي آثار على الناحية الصوتية للغة الحديث بحيث صارت هذه الآثار حقيقة مسلماً بها ، ودخلت لغة الخطاب العامة ، وأصبحت لا تثير انتباه المتكلمين . ولا يشعر بغرابتها أو شذوذها السامعون ؟

يجيب بعضهم عن هذا السؤال بالإيجاب . ويضربون أمثلة على هذا التأثير . ولكن بالفحص الدقيق يتبين خطأ هذا الرأي ، وعدم صحة الأمثلة التي ذكروها . ومما قيل في هذا الموضوع إن العربية الصعيدية تنطق صوت « الجيم » بقيمة الصوتية القبطية . فهي تنطقه [] كما ينطق في اللغة القبطية وبصورة مختلفة عن نطقه في كل الأقطار الأخرى المتكلمة باللغة العربية (١) . ولكن الحقيقة أن نطق الجيم الموجود بين عامة الصعيد يعكس — على ما حقق دى لاسي أوليري — أثراً بدوياً لا أثراً قبطياً . وقيل كذلك إن نطق القاف جيماً غير معطشة في لغة الصعيد حدث بتأثير النطق القبطي للرمز K الذي يمثل القيمة الصوتية للرمز ق . والذي كثيراً ما لفظه الأقباط جيماً غير معطشة (٢) . وهذا أيضاً غير صحيح ، لأن نطق القاف جيماً غير معطشة يقع كذلك — كما أثبت دى لاسي أوليري — في حديث البدو السوريين وبدو الجزيرة العربية في جدة ومكة ونجد .. وأجزاء من فلسطين والعراق .. ولهذا فهو اتجاه بدوي يعطى دليلاً على استقرار قبائل بدوية في مصر العليا في العصور الوسطى ؛ فهو — مرة أخرى — خاصة بدوية وليس خاصة قبطية :

وقيل إن نظام أصوات العلة الإضافية المستعملة في عربية مصر اليوم إنما هو نتيجة لنفوذ اللغة القبطية ، فقد حدث نتيجة لغني التعبيرات القبطية بأصوات

(١) صبحي : Common Words ص ٢٢ .

(٢) صبحي : قواعد اللغة المصرية القبطية ص ١٩ .

العلة - ولا سيما الأخيرة - أن أصبح المصريون حين يتكلمون العربية يدخلون في كلامهم أصوات علة مساعدة أو مختلصة في حالة اجتماع عدد من حروف السواكن وذلك في جملة مثل شغل مين دا؟ التي تنطق؟ (i) min da Shughl (1) وفي رأينا أن هذا التفسير لهذه الظاهرة خاطئ؛ فإن ما حدث كان مجرد جلب حركة صغيرة أو نصف حركة للتخلص من التقاء السواكن نتيجة لإلغاء ظاهرة الإعراب في لغة الحديث . أو بعبارة أخرى للتخلص من وقوع المقطع س ع س س (2) وسطا حيث إن وقوعه مقيد بكونه المقطع الأخير (3) . وبذلك تحولت الجملة من س ع س س ع / س ع ع س / س ع إلى س ع س / س ع ع س ع / س ع ع س ع . وهكذا نرى عدم وجود أى أثر قبضى في ذلك وإنما هو تغيير لموافقة طبيعة اللغة العربية .

وهناك أمثلة أخرى يَحتمل اشتغالها على نماذج للتأثير الصوتي للغة القبطية على عربية مصر قد حددت بعد دراسة مقارنة لأصوات اللغة القبطية والعربية الفصحى والمصرية الدارجة . وقد وجد أن من الخصائص الصوتية التي توجد في القبطية والمصرية الدارجة دون العربية الفصحى ما يأتي :

- (أ) استعمال الفونيم (:) ١ = پ .
 (ب) تسهيل صوت العين .
 (ج) عدم وجود الصوت ث (:) .

(١) Prince ص ٢٤٦ .

(٢) س = ساكن Consonant و ع = علة Vowel .

(٣) انظر Mitchell في : Prominence ص ٣١١ ، ٣٧٥ .

و د . أبواب في التطور النغوي ص ٨٩ .

(٤) كلمة فونيم Phoneme مصطلح يراد به الوحدة الصوتية المستقلة التي قد تضم صوتاً واحداً أو عدة أصوات متشابهة يتوقف استعمال كل منها في الغالب على موقعه في الكلمة وعلى الأصوات المجاورة له .

(٥) بشاي : Notes و صبحي : قواعد اللغة المصرية ص ١٠٦ .

ولكن الظاهرة الأولى ليس مردها اللغة القبطية بدليل اختفاء التفريق بين الرمزين ب و ب في القبطية ونطقهما كما تنطق الباء العربية في الهير و غليفيه والديموتيقية أى قبل تكوين اللغة القبطية (١) . ولهذا فنحن نرى أنها ظاهرة حديثة النشأة ، ولم تكن موجودة في الفترة التي ندرسها وأنها دخلت عربية مصر مع النفوذ الأوربي الحديث .

وأما الظاهرة الثانية فترى أنها — من ناحية — تطور حديث يلي فترة الصراع بين القبطية والعربية ، ومن ناحية أخرى أنها نتيجة التسهيل بإبدال الصوت الساكن الخاقى إلى صوت لين مماثل . أما أنها تطور حديث فغايها في جميع وثائق البردى التي بين أيدينا . وعلى ما حققه البروفسر جروهمان فإن الصيغة العددية التي كانت مستعملة في الوثائق هي حد عشر وخمست عشر وست عشر (٢) . .
وأما أنها نتيجة التسهيل إلى صوت لين مماثل فإن من الثابت صوتياً وجود علاقة بين صوت الحلق والفتحة . وفي ذلك يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس : « إن أصوات الحلق تناسب في الغالب وضعاً خاصاً للسان يتفق مع ما نعرفه من وضعه في الفتحة (٣) » . وما الألف في حداشر وخمستاشر إلا فتحة طويلة . ويفسر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أيوب هذه الظاهرة قائلاً : « أما العين فالظاهر أن المصرية تميل إلى التخفيف من درجة احتكاكها وذلك يجعل فتحة منجرها في الحنجرة أكثر رخاوة واتساعاً . وتكاد تكون العين القاهرية تقارب الحركة لهذا السبب (٤) » .

وأما اختفاء الصوت ث من لغة الحديث فواضح — من وثائق البردى — أنه موغل في القدم . وأنه تحول تم في القرون الأولى . ومع ذلك فلم يكن

(١) صبحى : قواعد اللغة المصرية ص ١٨ ، و Common Words ص ٢٣ .

(٢) From the World ص ٩٦ .

(٣) من امراز اللغة ص ٣٣ .

(٤) التطور النوى ص ٧١ .

نتيجة تأثير قبلى وإنما نتيجة التحفف من الأصوات العسيرة فى النطق كما حدث بالنسبة للصوت ظ الذى حل محله ض فى مثل « احفض » (وثيقة مؤرخة ١٠١ هـ) و ذالى صارت دونحو ذلك ، أو هو لهجة عربية كما سنحدث فيما بعد .

على أن وجود الصوت ث أو عدم وجوده فى اللغة المصرية القديمة أمر مختلف فيه . فقد أثبتته البرفسر Plumley كصوت مستعمل فى اللهجة القبطية الصعيدية حين ذكر أن الرمز ϩ ينطق ih فى حين أن الدكتور جورجى صبحى لم يثبت من بين أصوات القبطية حين ذكر أن هذا الرمز ينطق إماتاه أو طاء .

والنتيجة التى تنتهى إليها هى أن تأثير اللغة القبطية على عربية مصر فى مجال الأصوات معدوم تماماً فى لهجة القاهرة ، وإن كنا لا ننكر احتمال وجود بعض التأثيرات فى نطق أبناء الصعيد بخاصة ولكن بدرجة محدودة جداً .

ومن المناسب أن نشير فى ختام هذا الحديث إلى حقيقة هامة تتعلق بالخطوط العربية التى كتبت بحروف قبطية . فقد كنا نتوقع أن يظهر فيها تأثير الأبجدية القبطية على الأصوات العربية بأن تخفى الأصوات العربية التى لا يمكن تمثيلها برموز قبطية ، ولكن لم يحدث هذا ، إذ رأى الكاتب أن يمثل الصوت العربى بـ رمز قبلى يمثل أقرب الأصوات إليه : ثم يضع الرمز العربى أو جزء منه فوق الرمز القبطى . فعل ذلك مع صوت القاف إذ كتبه k ووضع فوقه الرمز ق . وفعل ذلك مع أصوات الحلق الثلاثة الماء والحاء والعين فكان يمثلها بالرمز القبطى ح . ثم للتعبير عن الماء يدعه كما هو : وللتعبير عن الحاء يضع الرمز ح فوقه وللتعبير عن العين يضع الرمز ع (رأس عين) فوقه ... وهكذا .

(ب) التأثير النحوي والصرفي (١)

لا يوجد نفوذ قبلي على جانبي النحو والصرف في لغة الكتابة بشقيها ، ونعني بالنفوذ القبلي انتقال قاعدة نحوية أو نظام صرفي معين إلى لغة الكتابة العربية . وقبول الكتاب لهذا التعبير الجديد واعتباره الأصل والقاعدة . وكل ما نجده - نتيجة لاختلاف نظام الجملة وقواعد النحو بين اللغتين - أخطاء كثيرة في بعض المخطوطات العربية القبطية يرجع معظمها إلى الترجمة الحرفية من القبطية على أيدي أناس لا يجيدون اللغة العربية . وأبرز خطأ ظهر في هذه المخطوطات تذكير الكلمات وتأنيثها . فقد عولجت بعض الكلمات المذكورة على أنها مؤنثة إذا حدث أن كانت كذلك في القبطية . وكذا العكس . ومثال ذلك كلمة الأرض التي هي مؤنثة في العربية ومذكورة في القبطية . وقد عولمت معاملة المذكر في بعض المخطوطات العربية التي كتبها مؤلفون أقباط . ويوجد كذلك كلمتان في القبطية للتعبير عن « الليلة » واحدة مذكورة والأخرى مؤنثة . ولكتنا نجد الكلمة العربية « الليلة » تعامل معاملة المذكر في بعض المخطوطات القبطية ربما حينما شاع استعمال الكلمة القبطية المذكورة . ومن أبرز الأخطاء كذلك استعمال المفرد بدل الجمع في تمييز العدد في نحو تسعة دينار (بدلا من

(١) استمارة الظواهر النحوية قضية خلافية بين المهتمين من المنوبين ، فينكر whiteney مكانه هذا ويقول « أم يتعزبه دارسو اللغات قط هل تلك اللغة التي تتضمن مزيجا من القواعد النحوية . ويشعر هذه اللغة بالنسبة لم مخلوقا عجيبا . بل هي أحد المستحيلات » . وينادي هي لامي أو إيرى بنفس الرأي إذ يقول : « لا توجد لغة بقواعد نحوية مختلطة » . أما يسبرين فيرى أن في هذا القول شيئا من المغالاة والإسراف . ويضرب عدة أمثلة على تأثير اللغات بعضها ببعض في هذه الناحية . وما يؤيد هذا الرأي ما نعرفه في الصلة بين العربية والفارسية حين استعارت الفارسية طريقة الجمع العربية وجمعت عليها بعض الكلمات الفارسية . هذا إلى أن نظام الجملة في العصر الحديث قد تأثر إلى حد ما ببعض الأساليب الأجنبية . ولا سيما في أسلوب الكتاب المعاصرين الذين تأثروا بالثقافة الأوروبية (انظر على وجه الخصوص « من أسرار اللغة » ص ٩٥ وما بعدها) .

دائير (وأربعة ألف) بدلا من (أربعة آلاف) . (مراد كامل : حضارة مصر ص ٧١) . ولكن مرة أخرى - لا يعد هذا ونحوه نفوذاً قبطياً إذ ظل الناس ينظرون إليه على أنه لحن أو خطأ . ولم يكتب له حذف القبول والشبوح بين عامة الكتاب . نعم هناك أمثلة كثيرة في لغة الكتابة يتضح فيها أثر الأجنبي في استعمال اللغة ولكنها كلها يمكن أن ترد إلى عامل الميل الطبيعي إلى التيسير الذي سنحدث عنه فيما بعد . وليس فيها أى أثر لنفوذ قبضي خاصة .

أما في لغة الخديث فربما كان الأمر على خلاف ذلك . وهناك - على الأقل - ادعاءات بوجود هذا النفوذ . وسنحاول الآن أن نعرض الخصائص الغريبة التي تبدو في عربية مصر لترى هل تعكس نفوذاً قبطياً أولاً :

(أ) استعمال « ما » كإضافة prefix تفيد الأمر مثل : ما تكتب (اكتب) .

(ب) استعمال « أ » بالإضافة إلى ضمير الشخص كإضافة مع الفعل الماضي مثل : أهو سمع .

(ج) استعمال اسم الإشارة « دا » في وظيفة معينة في الجمل غير الفعلية مثل : دا أنا الملك .

(د) تأخير أداة الاستفهام إذا كانت معمولاً مثل : رحى فين ؟

(هـ) استعمال الصفة متبوعة بحرف الجر « عن » بدلا من صيغة التفضيل العربية العادية مثل : هو أكبر عنى في مقابل هو أكبر منى .

(و) إلغاء ضمير المثني واستعمال ضمير الجمع للمثنى وإجماع كليهما مثل : الولدين رجعوا .

(ز) حذف حرف العطف في العدد مثل مئة خمسة وعشرين بدلا من مائة وخمسة وعشرون .

(ح) تأخير اسم الإشارة عن المشار إليه مثل : انوادده في مقابل : هذا الولد .

أما الظاهرة الأولى فقد ذكرها الدكتور « بشاي » دون أن يقدم لنا الدليل أو ما يشبه الدليل على النفوذ القبلي . ولا يكفي في نظرنا أن نجد ظاهرة غريبة في عربية مصر لنساع فتنسبها إلى النفوذ القبلي . وأي قبليّة في « ما » ؟ وأي قبليّة في « تكتب » ؟ أما التركيب نفسه فيبدو أنه هو التركيب العربي المكوّن من « ما » النافية والفعل المضارع . ويكون النفي قد خرج هنا عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر هو الاستنكار أو التوبيخ المدلول عليه بالتنعيم المعين للجملّة . فكأن الجملة تعني : لماذا لا تكتب ؟ ومفهوم هذا طلب الكتابة . وهو ما يؤدبه التركيب « ما تكتب » . وربما كان أقرب إلى القبول أن نقول إن « ما » أداة استفنّاح وهي « أما » . ولكن على عادة السرعة والاختصار في الكلام قالوا « ما تكتب » وربما زاد الاختصار عن ذلك فقيل « متكتب » . وحتى على فرض جهلنا بأصله العربي فليس معنى ذلك الحكم بقبليّته . وما أكثر ما احتوت اللغة العربية على لهجات قديمة عرفنا أقلها وجهلنا معظمها . وما أكثر ما أغفل القدماء تسجيل اللهجات العربية لسبب أو لآخر . وقد كان كثير من هذه القبائل المتروكة لهجاتها من بين القبائل التي هاجرت إلى مصر واستوطنتها كما سنفصل الحديث فيها بعد .

وأما الظاهرة الثانية فقد ذكرها كذلك الدكتور « بشاي » وهي — في رأينا — كسابقتها تنطق بهريتها .

وأما الظاهرة الثالثة فقد ذكرها الدكتور « بشاي » ومن قبله « لبيّان » . والتعبير في رأينا تبدو فيه الروح العربية الصرفة . إنه يبدو وكأنه صورة أخرى للتعبير « إنه أنا الله » الموجود في القرآن الكريم . فكأن « دا » هنا حلت محل « إن » و « ضمير الشأن » . وكان القائل « دا أنا الملك » يعني ما يعنيه قائل التعبير العربي : « إنه أنا الملك » . ثم لا معنى لقول بشاي إن هذا التعبير يستعمل في الحمل غير الفعلية . فهو موجود في الفعلية كذلك . فكلنا نقول :

دا أنا قمت ، دا أنا كتبت ، الخ . وهذا التعبير - بعد هذا - موجود - كما حقق دى لاسى أولبرى - فى عربية سورية وفى اللغة الملتبية وغيرهما . أما الظاهرة الرابعة فقد كثر القيل والقال فيها واعتبرها الدكتور « بشاى » تغييراً جوهرياً فى اللغة المصرية الدارجة نتيجة نفوذ قبلى . وقد سبقه إلى هذا الرأى Stern و Praetorius . وفى رأينا أن الباحثين الثلاثة لم يحالفهم التوفيق وأن القضية كالتى :

١ - أن هذه الظاهرة موجودة فى عربية سورية . فهم يقولون الكتاب منين ؟

٢ - هناك أمثلة وردت لهذا التأخير فى العربية الفصحى . وإذا كان النحاة قد أولوها بما سواه بالتعليق وهو إبطال عمل العامل لفظاً لا تقديراً فهذا لا يبنى وجود الاستعمال .

٣ - أن تأخير أداة الاستفهام ليس القاعدة فى القبطية . فقد ورد فى المقدمة المسماة بالكفاية فى نحو اللغة القبطية لتشيخ الوجيه القليوبى (وهى من كتب القواعد القبطية المعتمدة ومؤلفها من أوائل من كتبوا فى نحو القبطية . وهو من علماء القرن الثالث عشر الميلادى) أن « أين » تقع قبل الكلام وبعده (ص ٣٥) وأن « متى » لا تأتى إلا مع فعل قبلها أو بعدها (ص ٣٦) . كما ذكر أحكام « من » إذا تلتها نكرة أو معرفة (ص ٣٤) وذكر أن « كيف » يحسن أن يقع بعدها فعل (ص ٣٥) . وذكر الدكتور عبدالمحسن بكير فى كتابه « قواعد اللغة المصرية فى عصرها الذهبى » أن « من » و « ما » هما الصدارة (ص ٣٧ و ٣٨) .

٤ - أن القاعدة فى العامية المصرية ليست تأخير أداة الاستفهام . فنحن نقول : فىن أخوك ؟ وأخوك فىن ؟ كما نقول : منين جيت ؟ وجيت منين ؟ .

٥ - أن بعض الأمثلة التى تؤخر فيها الأداة مرجعه إعادة تنظيم الجملة وتغيير هندستها نتيجة للتخلص من الإعراب . وأضرب لذلك المثال الآتى :

لنأخذ الجملة الفصحى : قابل محمد علياً . يمكننا أن نسأل عن المفعول فنقول : من قابل محمد ؟ وعن الفاعل فنقول من قابل علياً ؟ والفرق واضح بين الحملتين نظراً لوجود الإعراب . فإذا حولنا هاتين الحملتين إلى العامية المصرية فقلنا : مين قابل محمد ومين قابل على لم يكن هناك دليل على وظيفة كل كلمة في الجملة . ولهذا استعاضت العامية عن الإعراب بالموقعية فخصت مين قابل على ؟ حين تكون ، مين ، في موقع الفاعل ومحمد قابل مين حين تكون ، مين ، في موقع المفعول . وهكذا يتضح غياب النفوذ القبطي في هذه الظاهرة .

أما الظاهرة الخامسة فقد أشار إليها ، ليتمان ، . واعتبرها نتيجة نفوذ قبطي . وأشار إليها ، بشاى ، ولكنه تشكك في كونها نتيجة نفوذ قبطي . ومن المعروف أن اللغة المصرية القديمة ليس فيها صيغة خاصة بالتمييز النسبي أو التفضيل المطلق . ويعبر عن التفضيل النسبي بحرف آخر الذي يسبق الاسم المفضل عليه (١) .

ولكن مرة أخرى ليس هناك أى دليل قد يشتم منه إرجاع هذه الظاهرة في العامية المصرية إلى أصل قبطي . والأمر في رأينا يحتاج إلى التفصيل الآتي :

١ - تعبر العامية المصرية عن التفضيل بوسيلتين ، هما : أفعل + من ، أو الصفة + عن . ويبدو أن الاتجاه أول الأمر كان نحو إثارة الصيغة الأولى . كما يبدو من مخطوطات القرن الرابع عشر المكتوبة بحروف قبطية حيث جاء فيها ، صار أردا من الكل ، ثم تحول الاتجاه رويداً رويداً إلى الصيغة الثانية . ولا يمكننا أن نقطع برأى حول أيهما أكثر شيوعاً في الاستعمال الحديث . فإنه يفهم من كلام دى لاسى أوليري أن الصيغة الثانية أكثر شيوعاً ، ويفهم من كلام Galtier أن الصيغة الأولى أكثر شيوعاً .

(١) دكتور بكير : قواعد اللغة المصرية ص ١٠٠ و ١٠١ .

٢ - استعمال الصفة + عن له نظير في اللغة العربية . تلك اللغة التي تكشف أحياناً عن خصائص تنفق مع اللغة العربية المصرية الدارجة . ومن أجل هذا افترض دى لاسى أوليرى أن صيغة « أفعل من » قد تكون أحدث في الاستعمال من الصفة + عن . ومعنى هذا أن التعبير الثاني كان مستعملاً في القديم . وظل محتفظاً به في العربية . كما احتفظت به بعض اللهجات العربية . واستمر في شكل بقايا في اللهجات العربية الحديثة .

٣ - ذكر الدكتور عبد المحسن بكير أن هذا الاستعمال مطرد كذلك في السريانية والآرامية وكلاهما سامي .

٤ - ذكر دى لاسى أوليرى أن استعمالاً مماثلاً موجود في فجات أخرى حيث لا يوجد نموذج قبطي ففي مراكش يستعملون الصفة - على . وفي عمان يستعملون أفعل + عن .

وأما الظاهرة السادسة فلم ينسب إليها أحد . ولكنها قد ترد على البال نتيجة لما نعرفه عن اللغة الفبطية من استعمالها ضميراً واحداً للمثنى والجمع (١) . ولكن هذه الظاهرة هي الأخرى عربية أصيلة . واستخدام ضمير الجمع للمثنى معروف عند العرب قديماً . وورد في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : هذان خصمان اختصموا .

وأما الظاهرة السابعة فقد لفت نظري إليها ما وجدته في أوراق البردي من حذف واو العطف في جملة نحو « مئة ستة وأربعين درهم » مع ما ذكره الدكتور عبد المحسن بكير من أنه لا توجد أداة عطف في اللغة المصرية القديمة . بل تأتي الكلمات المعطوفة بعضها بتلو البعض الآخر (ص ١٧) . ولكن يغلب على الظن أن هذا الحذف كان يقصد التخفيف من تكرار الواوات وأن هدفه هو التيسير وتوفير الجهد .

(١) المقدمة نقلاوي ص ٢٥ و٢٦ ، وشذوذة ابن الدويرى ص ٤٣ .

وأما الظاهرة الثامنة ، فقد لفت النظر إليها خاصة من خصائص المصرية العربية من بين سائر اللهجات كما صرح دى لاسى أولبرى . ولا يمكن أخذ أى نتيجة من الصيغة « دا » لأنها موجودة فى « نمان » وشمالى إفريقية (ما عدا تونس) وغيرها . وقد صرح سيبويه نفسه بأن الهاء ليست جزءاً من اسم الإشارة وأنها حرف تنبيه . ولكن موقع اسم الإشارة هو المهم فى هذا المقام . فمن المعروف أن المصرية القديمة تضع اسم الإشارة بعد الاسم (١) (أما فى القبطية فاسم الإشارة يسبق الاسم) ، فهل أثر هذا على وضعه فى عامية مصر ؟ مع وجود هذا الاحتمال فإننا نرى أن هذا تطور داخلى بحث لا أثر فيه للعامل الخارجى أو الأجنبى . وقد ذكر الدكتور عبد المجيد عابدين أن اسم الإشارة يأتى للتبعية الوصفية بعد المشار إليه فى لهجة السودان كذلك . فيقال : الراجل دا . وقد يتقدم على المشار إليه . ومن الأمثلة التى احتفظت فيها عامية مصر بموضع اسم الإشارة قبل المشار إليه قولهم : « دلوقت » التى تتركب من اسم الإشارة + كلمة الوقت . وفى رأى أن وضع اسم الإشارة بعد المشار إليه قصد به التيسر وتجنب التشعيبات الموجودة فى اللغة الفصحى . انظر مثلاً الجملة : أخوك هذا ... فى الفصحى حيث لا يصح أن يتقدم اسم الإشارة فيها فيقال هذا أخوك ... ، والجملة هذا الأخ ... حيث يتقدم اسم الإشارة . أما فى العامية فيقال فيهما كليهما : أخوك ده ... والأخ ده ... بتوحيد مكان اسم الإشارة بدون نظر إلى نوع المشار إليه .

وتخلص من كل هذا إلى أنه ليس هناك دليل أو شبه دليل على وجود أثر قبطى فى مسائل النحو والصرف . وكل ما هنالك قد يكون مجرد شبهات أو احتمالات ليس جانب الإيجاب فيها أقوى من جانب السلب .

(١) دى لاسى Notes من ٢٥٣ .

(ج) التأثير في مجال المفردات

لا يستطع أحد أن ينكر أثر القبطية على عربية مصر في مجال المفردات ، ولكن شدة الخلاف واسعة بين الدارسين حول تقدير مداه . وفي رأينا أنه ينبغي أن ينحصر على حدة كل مستوى من مستويات اللغة الثلاثة التي سبق أن أشرنا إليها . لأن آثار هذا العامل تختلف من مستوى إلى مستوى .

فإذا نظرنا إلى المستوى الأول . وهو المستوى الأدنى وجدنا أثر هذا العامل ضعيفاً جداً لا يتجاوز بضع كلمات دخلت لغة الكتابة . وأصبحت تتردد في أساليب المثقفين والمتخصصين . وقد حالف الحظ بعض هذه الكلمات فافتحت اللغة الفصحى المشتركة ولم تعد ينظر إليها على أنها خاصة مصرية أو لفظة محلية . ومن أمثلة ذلك :

١- كلمة « تليس » التي تعني زكية أو كيساً كبيراً . وقد وردت في كتاب « المكافأة » لابن الداية . ويبدو أن هذه الكلمة قد أصابها التعريب فاعتبرت عربية . بدليل أننا لا نجد إشارة إلى أصلها القبطي في كتب اللغة . وقد فسرها ابن منظور تفسيراً مختلفاً إذ قال في لسان العرب : « الثلبسة وعاء يسوى من الخوص شبه قذعة وهي شبه العيبة التي تكون عند العصارين » . وقد أشار إلى الأصل القبطي لهذه الكلمة العلامة القبطي أقوادديوس ليب في كتابه « مجموعة الألفاظ القبطية المتداولة باللهجة العربية العامية » . والبحانة القبطي جرجس فيلوثاوس عوض وشرحها بأنها الزكية التي توضع فيها الحبوب وتحتوي على اثني عشرة كيلة وصارت الآن اسماً عاماً للزكية . كما ذكرها الدكتور صبحي في كتابه .

Common Words in the spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin.

٢ - كلمة « طوبة » التي استعملها عمر بن الخطاب في قوله « ولاندخلن القبر خشبة ولا طوبة » . واضطربت المعاجم العربية في بيان أصلها الأجنبي . فقيل هي شامية وقيل رومية وقيل إنها جاءت بلغة أهل مصر . وقد ذكر

ابن منظور كذلك أن الشافعي قد استعملها . وكلنا نعرف أن الشافعي أمضى فترة طويلة من عمره في مصر ، ألف بها بعض كتبه . أو أعاد كتابتها . وقد ذكر أصلها القبطي الدكتور جورجى صبحى .

٣ - هذا بالإضافة إلى أسماء الأعلام على اختلاف أنواعها .

أما المستوى الثانى وهو مستوى الكتابة لغبر المنحصرين أو المستوى نصف الأدب فتعدد فيه بكثرة نسبة الألفاظ الأجنبية ذات الأصل القبطى . وأحياناً اليونانى أو اللاتينى . وبذلك واضح . وهو أن معظم صغار الموظفين فى تلك الفترة - وبخاصة فى جزئها المبكر - كانوا يحملون أسماء قبطية مثل مينا بن شنودة وسويرس بن زكريا . مما يعنى أنهم لم يكونوا مسلمين . وأنهم من تلك الفئة التى تعلمت اللغة العربية لتحفظ بمناصبها أو لتنتفع أمامها أبواب الرزق . ومعنى هذا أن لغتهم العربية ليست خالصة . وأن معجمهم اللغوى ولا شك متأثر بلغتهم الأصلية .

وإن نشود اللغة القبطية فى هذا المستوى قد بدا فى شكل الاحتفاظ بأسماء الشهور القبطية حتى ولو كان العام مكتوباً بالتاريخ الهجرى مثل : هاتور من عدد القبط سنة ٢٧٣ هجرية . . . و . . . نوت من سنة ٢٣٣ هجرية . . . ومن الطريف أننا نجد بعض الناس - فى ذلك الوقت - يحملون اسمين أحدهما عربى والآخر قبطى مثل : أنها اعتقت صغراء بالعربية . واسمها بالقبطية دجاشة ابنة أربنة . . . ومن الكلمات القبطية التى وردت فى وثائق البردى :

١ - كلمة « بقط » بمعنى عقد إيجار .

٢ - وكلمة « حالوم » نوع معين من الخبز .

٣ - هذا إلى جانب أسماء الأعلام بمختلف أنواعها .

أما المستوى الثالث وهو مستوى الخطاب أو لغة الحديث العادي .
 فعلى الرغم مما يتوقع من قوة النفوذ القبلى عليه فإن النتائج النهائية تفضى
 بغير ذلك . نعم إن نفوذ القبطية فى هذا المستوى أكثر منه بكثير فى المستويين
 السابقين . ولكنه - مع ذلك - محدود . وكثير من آثاره محصور فى مناطق
 ضيقة أو أماكن نائية . وبخاصة فى الصعيد . ولذا فهى غير معروفة لكثير من
 المصريين . وإذا نحن قمنا بتصنيف هذه الكلمات الأجنبية التى يرجع كثير
 منها إلى أصل قبطى وجدنا معظمها يتدرج تحت الثرغوس الآتية :

١ - كلمات خاصة بالكنيسة وبالطقوس الدينية وحياة الرهبنة مثل
 أنبا وأسقف وبطريق وبطريك وأبرشية (ولاية الأسقف ورعته) . ولكن
 معظم كلمات هذا النوع مقترن من اليونانية . ولا يمكننا أن نقطع أكان
 انتقال هذه الكلمات إلى اللغة العربية تم فى مصر أم فى سورية .

٢ - كلمات تدل على أنواع من الطعام غير معروفة عند العرب مثل
 « بصارة » . للدلالة على الطبق الشعبى المعروف . وهى فى القبطية مركبة من
 كلمتين . ومعناها الفول المصرى المطبوخ . وفول مدمس . إذا نحن قبلنا
 أن أصلها قبطى . وعيش . بتاو » : وجبنة ، حالوه ...

٣ - أسماء لأنواع من السمك أو الحيوانات المصرية مثل « ملوحة » .
 و « بورى » . و « شلبة » . و « أنومة » . و « تمساح » . و « بس »
 المستعملة لزرع القطة ومعناها فى المصرية القديمة القط .

٤ - أسماء نباتات أو آنية أو مكاييل معينة كانت مستعملة فى مصر مثل
 « برسيم » . و « سريس » . و « شكوريا » . و « سنط » . و « بلع
 أمهات » . و « بلاص » . و « ماجور » . و « إردب » . و « ويبة » .

و « مترد » للوعاء الذى يوضع فيه اللبن وقت حليبه . ومعناه بالقبطية محل اللبن (١) .

٥ - أسماء أمراض أو وصفات بلدية مثل كلمة « شوطة » (٢) التى تستعمل للدلالة على الوباء . و « سنطة » التى تستعمل للدلالة على الورم الصغير الذى إذا قطع آدمى ثم نما ثانية . وكلمة « واوا » التى تستعمل مع الأطفال للدلالة على ألم أو جرح أو حرق .

٦ - أسماء الأعلام مثل الشهور القبطية الشائع استعمالها حتى الآن فى القرى المصرية . وأسماء البلاد مثل صهرجت . وسنهور . وسنجرج ، وصفط . وأرمنت ، وسمنود ... الخ .

وأسماء الأعلام كثيرة جداً، وإن كان من الصعب أن نعدّها من الكلمات المقترضة أو ننسبها إلى لهجة عربية معينة . نعم هناك أسماء عامة مدرجة ضمن بعض أسماء المكان . وما زالت مستعملة فى عربية مصر مثل كلمة « باب » التى تعنى مقبرة (ولا علاقة لها بالكلمة العربية باب) . ولا زال المصريون يطلقون اسم « باب الملوك » على إحدى مقابر الملوك عند « طيبة » . ولكن حتى هذه من الصعب عدّها كلمة مقترضة لأنها لم تعمم فى الاستعمال ، ولم تصبح فى عرف الناس مرادفة لكلمة « مقبرة » . ولا شك أن جمهور المتكلمين لا يفتنون إلى معناها القديم فى القبطية .

وهناك عدد آخر من الكلمات الشائعة فى عامية مصر ولها أصل قبضى مثل « سيجه » للعبة الشعبية المعروفة ، و « ياباى » التى يستعملها الأطفال بخاصة

(١) لا يمكننا أن نجزم بالأصل القبطى هذه الكلمة ، إذ هناك احتمال كبير أن تكون الكلمة عربية على ما سنفسره فيما بعد .

(٢) قد يقال بعربية هذه الكلمة وأنها من « الإناضة » بمعنى الإعتدال والاحتراق . وأن أصلها « شبطة » ثم حوّفت إلى « شوطة » .

حينما يرون ما يفزعهم ، ومعناها الحرفى فى القبطية « بومة » أو « غراب الليل » ، و « لبشة (١) » ، « قصب » ، و « بخ » حينما يريدون تخويف شخص ومعناها فى القبطية « الشيطان » ، و « تف » بمعنى بصق (٢) ، و « فجل » و « وروز » ، و « بوش » ، (٣) و « بح » (٤) بمعنى انتهى . و « ممة (٥) » و « امبو » فى لغة الأطفال . و « جاى » فى الاستغاثة أو الشكوى .

و موضوع تبادل المفردات بين اللغات أكثر مستويات اللغة شيوعاً . لأنه يتصل بتبار الثقافة والعادات أكثر من اتصاله بأصل اللغة وجوهرها . وكم من لغة عاشت وتعيش بمفردات أجنبية ومع ذلك تظل محتفظة بجنسها المميز . مثل « الأردية » التى اشتقت مفردات كثيرة من العربية والفارسية ، ولكنها قطعاً لهجة من اللغة الهندية . ومثل اللغة المالطية التى تعرضت لتأثير إيطالى قوى فى مفرداتها . ولكنها ما تزال ينظر إليها على أنها لهجة عربية . ونحب قبل أن نختم هذا الفصل ، أن نتعرض بشئ من التفصيل للدعوى العريضة التى يكثر الدارسون الأقباط من ترديدها ، وهى إقراض القبطية عربية مصر بأمداد ضخمة من المفردات . ونقتبس أولاً ما قاله الدكتور

(١) من المستبعد أن تكون الكلمة عربية وأن تكون كما يرى بعضهم مأخوذة من مادة « ابيك » من قولهم رأيت لباكة من الناس أو لبيكة ، بمعنى جماعة ثم أبدلت الكاف شيناً للحنف . (٢) ربما كان الأترب إلى الصواب القول بأن الكلمة ترجع إلى أصل فارسي أو تركي . لأن « تف » و « نفو » كلمة تركية وفارسية بمعنى لعاب أو ريق . وربما كان أصلها سريانية . (٣) توجد فى الفارسية كلمة « بوج » ومعناها فارغ أو خال أو أجوف . ولعل الكلمة العربية مأخوذة من هذا الأصل الفارسي .

(٤) فى السريانية توجد كلمة « بح » بمعنى نخر أو جف أو ذبل فمن المحتمل أن تكون « بح » العربية لها أصل سريانى . وهناك احتمال آخر أن تكون الكلمة عربية كما سنفصل فيما بعد . (٥) هناك احتمال قوى أن أصل هذه الكلمة تركي . فنرى التركية يقال للأطفال « ممة » ومعناها اللدى . وربما كانت الكلمة مكتوبة صوت حركة الفم عند الأكل .

جورجى صبحى فى هذا الخصوص من مثل : « بفحص المفردات المستعملة فى عامية مصر يذهل الشخص لاكتشافه عدداً كبيراً من الكلمات التى يمكن بسهولة أن ترد إلى أصل مصرى قديم أو قبطى » . وبعد أن ذكر قائمة طويلة من هذه الكلمات عقب بقوله « وهناك مئات أخرى من الكلمات الشائعة فى هجة مصر التى لا تفهم فى سائر البلاد العربية ولم ترد فى المعاجم الكلاسيكية » . فهل هذا صحيح حقاً ؟ وهل عامية مصر متأثرة بالمفردات القبطية إلى هذا الحد الكبير ؟ وهل الدكتور صبحى - وغيره - على حق فى القوائم الطويلة التى ذكروها بهذا الخصوص ؟ دعنا أولاً نلقى نظرة فاحصة عليها . ونبين رأينا فى بعض مفرداتها لفظاً لفظاً قبل أن تصدر حكمنا العام فى الموضوع . تتضمن قوائم الكلمات :

١ - لبؤة : والكلمة ومادتها موجودتان فى المعاجم العربية ، وليس فيها إشارة إلى أصلها الأجنبى .

٢ - مصطبة : والكلمة عربية صرف . قال الأزهرى : سمعت أعرابياً من بنى فزارة يقول نخادم له : ألا وارفع لى عن صعيد الأرض مصطبة أبيت عليها بالليل . فرفع له من سهلة شبه دكان مربع : قدر ذراع من الأرض : يتنى بها من الهوام بالليل . قال وسمعت آخر من بنى حنظلة سماها المصطفة بالفاء .

٣ - عزبة : والكلمة كذلك عربية خماً ودماً . وهى وإن لم ترد بنصها فى كتب اللغة فقد وردت مادتها وهى تدور حول الزرع والكلاء والرعى . ومما جاء فى لسان العرب : أرض عزوية بعيدة المرعى - العازب من الكلاء البعيد المطلب - المعزب طالب الكلاء - كلاء عازب لم يبرع قط . أعزب القوم إذا أصابوا كلاً عازباً - أعزب إبله وعزب إبله بيتها فى المرعى .

وهكذا تبدو من الاستعمالات المختلفة لهذه المادة عربية الكلمة ، عزبة .

وحتى استعمالها فى معنى قريب جداً مما ورد فى المعاجم .

٤ - ففتت : وفي اللسان : فت الشيء دقه وقيل كسره بأصابعه .
والفت أن تأخذ الشيء بإصبعك فتصيره فتانا أي دقاقا . وكل ما في الأمر
استعمال صيغة مضعف الرباعي بدلا من مضعف الثلاثي . وتلك ظاهرة
شائعة في عامية مصر للدلالة على المبالغة واستعمال الحيلة كقولهم دقدق ،
وبصبص ، وشمشم ... الخ .

٥ - صيت : والكلمة عربية ووردت في شعر لبيد (١) وفي الحديث
النبي الشريف (٢) .

٦ - مدة : وفي اللسان : أمد الجرح صارت فيه مدة . والمدة ما يجتمع
في الجرح من القبح .

٧ - (رجل) مهلوس : والكلمة تحريف للفظ العربي مهلوس
من قولهم رجل مهلوس العقل أي مسلوبه .

٨ - هوش : وفي اللسان : الهوشة الفتنة والهيج والاضطراب
والهرج والاختلاط وكل شيء خلطته فتد هوشته .

٩ - شوط : الكلمة محرفة عن النطق العربي شَوْط . وقد رواه
الأصمعي وورد في الحديث النبوي وفي حديث الطواف : رمل ثلاثة أشواط .

١٠ - رفا (الحاجب) : وفي اللسان رفا النبات اهتز . ورففت عينه
ترفا اختلجت ، وكذلك سائر الأعضاء .

١١ - غمخم (في وصف الشخص المزكوم) : وفي اللسان : الحمخمة
ضرب من الأكل قبيح ، والحمخمة مثل الخنخنة . ثم ذكر في مادة خنن :
الخنين صوت يخرج من الأنف ، وقال الجوهري هو كالبكاء في الأنف

(١) وهو قوله : وكم مثله من ماله حسن مينة لأبائه في كل مبدى وشعر

(٢) وهو قوله صل الله عليه وسلم : ما من عبد إلا له صيت في السماء .

أو الضحك في الأنف . وقال الفصيح من أعراب بني كلاب : الخنين سُدد في الحياشيم . والعلاقة واضحة بين المعنيين مما يجعلنا نقطع بعربية اللفظ .

١٢ - عَيْلٌ : وفي اللسان : عيال الرجل وعياله الذين يتكفل بهم ، وقد يكون العيَل واحداً عن كراع . ويبدو أن التطور الذي لحق هذه الكلمة على يد المصريين كان هو نقلها من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد بدليل أن صاحب اللسان نقل هذا الاستعمال عن كراع وحده . وكراع من علماء اللغة المصريين كما سبق أن أشرنا .

١٣ - مسخّم : وفي كتب اللغة : السخمة : السواد ، والأسخم الأسود ، والسخام : سواد القدر ، والسخام : الفحم ، والسخام : السواد . ومنه قيل سخّم الله وجهه أى سوّده . وروى عن عمر في شاهد الزور : يسخّم وجهه أى يسود .

١٤ - « أوأ » و « أم أوى » : وهما - في الحقيقة - تحريف للكلمتين العربيةتين أوق وأم أويق . يقال : آق فلان علينا إذا أتانا بالأوق وهو الشؤم . وسميت البومة « أم أويق » لتشاؤمهم منها .

١٥ - برآ (كفوخم اخرج برا) : والكلمة عربية صحيحة . فالبر نقيض الكن ، والعرب تستعمله في النكرة تقول : جلست برا . أو خرجت برا : إذا خرج إلى البر والصحراء . ولا يطعن في عربية الكلمة ما يقوله بعض اللغويين من أنها - في ذلك التعبير الخاص من كلام المولدين - ولم تسمع من فصحاء العرب بالبادية .

١٦ - نف ونفاة : وهي عربية مأخوذة من مادة « النغف » مع إبدال الغين فاء . والنغف ما يخرج الإنسان من مخاط من أنفه .

ولا نريد أن نخبر صفحات أكثر من هذا لإثبات عربية عشرات أخرى من الكلمات التي ادعى أصلها القبطي ، ولذا سنكتفي بالإشارة إلى عدد آخر منها وهو :

تَبْتوت - معدبة - هرة من خوفه - با مطرة رُخى - دبش - مهباص -
 مكلكم - صُباع - عتف (الذباب) - كوع - سيف - قطف - كترم -
 (عنب) - أريكة - تل - مَر هُدل - عنتيل - قُلة (ماء) - بامنا -
 أقول مدشوش - فاس - جحش - كوب ... الخ .

وهكذا يتضح أن كثيراً من الكلمات التي ذكروها عربي صرف . وبعضه
 معرب عن لغات أخرى . ونم تعريبه بعيداً عن مصر .

والخلاصة أن مخلفات اللغة القبطية من المفردات في غامية مصر محدودة
 جداً بعكس ما قد يظن . وقد عبر عن هذه الفكرة الدكتور بشاي حين قال :
 « وهذا ينتهي بنا إلى القول بأن الكلمات القبطية المشتركة الموجودة في المصرية
 اللدايرة لا تزال قليلة العدد . . . فليس هناك مئات ومئات من الكلمات .
 وليس هناك دهول من كثرة عددها . وإنما هي عشرات من الكلمات لا تتجاوز
 بحال من الأحوال المائة .

والنتيجة النهائية التي نستخلصها من كل هذا أن التأثير القبطي على عربية
 مصر تأثير محدود جداً لا يكاد يتجاوز مجال المفردات . وحتى في هذا المجال
 فالآثار ضئيلة جداً على عكس ما يردده البعض . وليست هذه النتيجة بالأمر
 الشاذ أو المستغرب لدى دارسي اللغات ومراحل صراعها . وإنما هو شيء
 متوقع يمكن التكهن به مسبقاً . وفي ذلك يقول بلومفيلد عالم اللغة الأمريكي
 المشهور : حين تنتصر لغة الغزاة وتندثر اللغة المغزوة لا نكاد نلاحظ آثاراً
 في اللغة الغازية نتيجة لذلك الصراع إلا بعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة
 من أعلام أو أسماء الأمكنة . ومن ألفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة . .
 وهذا ما حدث للغة الرومانية حين قضت على معظم لغات أوروبا في عصر
 الامبراطورية الرومانية (١) .

(١) انظر الدكتور إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ٩٩ (ط الثانية) و Bloomfield

في كتابه Language ص ٤٦٤ .

الفصل الرابع

المؤثر الثاني: اللهجات العربية

جاء العرب إلى مصر فاتحين ثم مهاجرين . وكانوا مزيجاً من عناصر شتى . وقبائل متعددة . وحملت كل قبيلة معها لهجتها الخاصة التي تختلف قليلاً عن أختها . واختلط كثير من هذه اللهجات . وانزل بعضها مكوناً جزراً لغوية . وبخاصة في الأماكن النائية من الصحراء أو الصعيد الأعلى . ونتج عن هذا - إلى جانب عوامل أخرى كثيرة - وجود اختلافات بين لهجات الأقاليم . واختصاص كل محافظة . وربما كل قرية بسمات معينة . وبخاصة في لغة الحديث .

وإنه لمن المؤسف حقاً أن نقول إن اللهجات العربية القديمة لم يسجل كثير من سماتها وخصائصها . بل سجل القليل . وهو ما دخل في نطاق اللغة الفصحى . وترك الكثير وهو ما خرج عنها . وقد قسم علماء اللغة والرواة القبائل العربية إلى قسمين اهتموا بأحدهما وأهملوا الآخر . وبنوا فكرتهم على أساس البداوة والحضارة . فكلمة كانت القبيلة بدوية أو أقرب لحياة البدو كانت لغتها أفصح . والثقة فيها أكثر . وكلمة كانت متحضرة أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة . وكلمة كانت انقبيلة منعزلة عما حولها . ومنقطعة الصلة بالعالم الخارجي كانت لغتها أفصح وأنى . وكلمة كانت وثيقة الصلة بالأمم المجاورة ولها علاقات من أي نوع كان مع الدول الأجنبية كانت لغتها محل طعن وموضع ريب . وفكرتهم في هذا

أن الانعزال في كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يحفظ اللغة نقاوتها ، وبصونها من أي مؤثر خارجي . وأن الاختلاط يفسد اللغة وبتحريف بالألسنة . وأول من روى لنا قائمة محددة بالقبائل التي يستشهد بها والتي لا يستشهد بها الفارابي اللغوي في كتابه «الألفاظ والحروف» . وتعد هذه القائمة وثيقة تاريخية هامة . وعنه أخذها أبو حيان في «شرح التسهيل» والسبوطي في كتابه «المزهر» و«الاقتراح» . وإليكم نص هذه الوثيقة : قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على المساك عند النطق وأحسنها مسوعاً وأبينها إبانة عما في النفس . والذين نقلت عنهم اللغة العربية . وهم اقتدى . وعنوم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ونعيم وأسد . فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه . وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب وفي التصريف . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فلم يؤخذ عن حضري قط . ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المتخورة لسائر الأمم الذين حولهم : فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام مجاورتهم أهل مصر والقيبط . ولا من قضاة وغسان وإياد وشاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصاري يقرءون العبرانية . ولا من تغلب والذر فإنهم كانوا بالحزيرة مجاورين لليونان . ولا من بكر مجاورتهم للنبط والفرس . ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس . ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحيشة . ولا من بني حنيفة وسكان انمامة . ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم . ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتداءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ... » .

فإذا استعرضنا على ضوء هذه الوثيقة أسماء القبائل التي اشتركت في جيش

الفتح أو استوطنت في مصر نجد أن كثيراً منها كان من بين القبائل غير الموثقة التي لم تسجل لغتها .

١ - فمن المعروف أن أغلب المهاجرين العرب طوال القرن الأول كانوا من قبائل يمنية الأصل . وتطالعنا الوثيقة بعدد أهل اليمن من بين غير الموثوق فيهم الذين لم تسجل لهجاتهم .

٢ - أشهر من سكن مصر من « قضاة » : « جهينة » و « بلي » و « قضاة » مطعونة في فصاحتها .

٣ - من بطون كهلان التي سكنت مصر « لحم » و « جذام » و « غسان » والثلاثة مطعون في فصاحتها .

٤ - نزلت طائفة من قريش فسطاط مصر في أوائل الفتح . وسكن لفيف من الأنصار في الصعيد مصر . وقد تجنب علماء اللغة حواضر الحجاز .

٥ - هاجرت قبيلة « الكنزة » إلى مصر في القرن الثالث الهجري ونزلت في بلبس بالشرقية . وفي أعالي الصعيد . وبنو الكنزة ينتسبون إلى ربيعة بن نزار ويرتفع نسبهم إلى بني حنيفة المقيمين في منطقة البمامة . وتطالعنا الوثيقة السابقة بالتشكيك في بني حنيفة وسكان البمامة .

٦ - نجد قبائل من طيء، تصل مصر وتقيم بها في القرنين الأولين بعد الفتح . وقد هاجر بطن من بطونها اسمه سنبس في سنة ٢٤٢ هـ = ١٠٥٠ م من فلسطين إلى مصر حيث نزل مديرية البحيرة . وتطالعنا الوثيقة بأن بعضاً من طيء لا يوثق بلغتهم .

وهذا يعني أن لهجات هذه القبائل التي استبعدت من مجال التسجيل ، وحكم عليها بالفساد والخروج عن نطاق اللغة الفصحى ، والتي كانت في الواقع مصلاً من مصادر اللهجات العربية التي تكونت في مصر بعد الفتح لا نعرف عنها إلا القليل ، أو لا نعرف عنها شيئاً ألبتة . وهذا يلقي ظللاً كثيفاً من

الصعوبة على هذا الفصل حيث تفتقد الشواهد التي تعيننا على رد الظواهر اللهجية إلى مصادرهما الأولى . ورب ظاهرة نحكم عليها بالخطأ وهي ترجع إلى لهجة من تلك اللهجات الوافدة . ورب تعبير أو لفظ نظن أجنبيته وهو يمت بعرق ونسب إلى أصل عربي . ورب ظاهرة صوتية نتوهم رجوعها إلى اللسان القبطي وهي ترجع في الواقع إلى ضجة عربية أو خاصة بلوية .

وعلى أي حال فقد وضعنا أبدينا على بعض الخصائص اللهجية التي تركت آثارها في لغة مصر في هذه الفترة : وسنحاول أن نعرضها الآن . معترفين بأنها لا تمثل إلا القليل أو الجانب الصغير : وأنه ما زال بيننا وبين النقصى شوط كبير .

- ١ -

أما آثار اللهجات العربية في المستوى الأدبي للغة . وقد استخرجناها كلها من أرقى المستويات الكتابية في تلك الفترة فمن أمثاتها :

أولا : في مجال النحو والصرف :

١ - إلزام جمع المذكر السالم الياء في جميع حالاته الإعرابية . وقد لوحظت هذه الظاهرة حتى في الوثائق المبكرة المنسوبة إلى قررة بن شريك . وهي لهجة عربية أشارت إليها كتب النحو .

٢ - حذف نون المشي بدون إضافة نحو « مائتي » بدلا من مائتين و « بيتي » بدلا من بيتين ، وقد لوحظ هذا في وثائق البردي . وهذه أيضاً لهجة معروفة في كتب النحو وعليها المثل المشهور : بيضك ثنتا وبيضى مائتا أى بيضك ثنتان وبيضى مائتان . وجاء عليه قول الشاعر العربي :

هما خُطتا إما إساراً ومنة وإما دم والنقل بالحر أجدر
وابن جنى يرى رفع « إسار » ويستجوده .

٣ - حذف أن المصدرية قبل المضارع . ومن ذلك قول الشافعي :
عليه يتعلم الصلاة - قبل تُكْمَل الصلاة - قبل يُحَلّ عليك (١) : وقول
ابن زولاق : لاشتبهت تصنع نفسك (٢) . وحذف أن ه لجة عربية ،
وبعضهم يبقئ عملها بعد الحذف وبعضهم يبطله . (٣)

٤ - حذف النون في الإفعال الحمة بدون ناصب ولا جازم .
وقد تردد هذا في كلام الإمام الشافعي كقوله : فلا يُحَلُّوا المطلقه حتى تغتسل -
وينفروا في بعض ما أخذوا به منهم (٤) . كما ورد في كلام ابن زولاق
مثل (٥) : وجاءت سنانير يصبحوا . ومن كلام ابن الداية : تغيظني بقولك
أقرضيني . وهذه أيضاً لجة عربية صحيحة وجاء عليها الحديث النبوي
الشريف : كما تكونوا يولى عليكم .

٥ - نصب معمولي ، إن ه كقول الشافعي : من أن ذلك موجوداً
على كلهم (٦) . وشاهده من الشعر القديم ... إن حراسنا أسداً .

٦ - إثبات الياء في المنقوص التكرة كقول الشافعي : عن مصلى -
على نواحي - وكذلك كل والى - ثلاثة معاني كلكم مؤدى ما عليه -
من وجه ثاني (٧) .

(١) الرسالة (تحقيق أحمد شاكر) ص ٤٩ و ٢٦٥ و ٤٨٢ .

(٢) أخبار سيويه المصري ص ٣٩ .

(٣) القرآن الكريم : ومن آياته يريكم البرق ، وفي الشعر : شد العنق قبل يأخذك

- بالنصب - وقد روي بالوجهين قول الشاعر :

ألا أيها الزاجري أحرص الوفي وأن أجد اللغات هل أنت مغلد

(٤) الرسالة ص ٥٦٢ و ٥٩٧ .

(٥) أخبار سيويه المصري ص ٢٨ .

(٦) الرسالة ص ٥٥٨ .

(٧) الرسالة ص ٢٩٤ و ٤١٥ و ٤١٧ و ٤٣٢ و ٤٨٣ و ٥٣٠ .

٧ - إنابة الحار والخبور مناب انفاعل مع ذكر المنعول به منصوباً
كقول الشافعي : أن يُظن به ظناً مخالفاً - يشتري بالدنانير والدرهم نقداً
علا وسمننا (١) .

٨ - إلحاق علامة التثنية أو الجمع بالفعل إذا أسند إليه مثنى أو جمع
كقول ابن الداية : اشتهوا على صبياني حلوى في العيد . وتلك ضجة مشهورة
معروفة في كتب النحو ولها شواهد كثيرة .

٩ - إشباع تاء الخطاب في مخاطبة المؤنثة كقول ابن الداية : جزاء
ماقدمته . قال الخفاجي هي لغة ربيعة . وقد وردت في الحديث النبوي
فما رواه البخاري كذلك . (٢)

١٠ - إدخال « ال » في العدد المضاف كقول أبي جعفر النحاس :
الثلاثة الأصناف - الثلاثة الأحرف ، بدلاً من ثلاثة الأصناف وثلاثة الأحرف ،
وقول ابن ولاد : والثلاثة الأنجم .

ثانياً : في مجال المفردات :

نجد مفردات كثيرة تتردد في أشعار المصريين وكتاباتهم ليس لها وجود
في المعاجم التي بين أيدينا . وهذه - في رأينا - لا بد أن تمثل استعمالات
خاصة لبعض القبائل التي أعمل تسجيل لغتها . أو تمثل مادة لغوية نددت عن حصر
اللغويين . ومن أمثلة ذلك :

١ - استعمال « ست » مكان « سيدة » وقد وردت في « المكافأة »
لابن الداية . وهي استعمال قديم أشار إليه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران
وذكر له البيت :

(١) الرسالة ص ٥١٤ و ٥٢٥ .

(٢) لغة القاطع على تصحيح بعض ما استعمله العامة من العرب والذخيل والمولد والأندلس

(ط الهند) ص ٥١ .

مت إن أعياك أمرى فاحملينى زقنونى
 وقال الفيروزى بادية : متى أى باست جهانى . وقال الزبيدى معقبا على
 هذا : كأنه كناية عن تملكها له . وقال بعضهم إن أصلها سبى فحذف بعض
 حروف الكلمة تخفيفاً . وللهاء زهير أبيات استعمل فيها هذه الكلمة أكثر
 من مرة متحدياً اللغويين التقليديين وهى :

بروحى من أسميها سبى فينظرنى النحاة بعين مقت
 يرون بأننى قد قلت لحننا وكيف وإننى لزهير وقتى
 ولكن غادة ملكت جهانى فلا لحن إذا ما قلت سبى

٢ - استعمال كلمة « عيالات » جمعاً لعيال . وقد وردت فى « فتوح
 مصر » لابن عبد الحكيم . وهى ليست فى معاجم اللغة التى رجعت إليها .

٣ - جمعهم « جيل » على جيبيل كقول المعلى الطائى :

كيف باقبط تكونوا عربسا وميريس أصلكم شر الخيل
 ولا يوجد هذا الجمع فى « لسان العرب » ولا القاموس المحيط .

٤ - استعمل سعيد بن عفيرة « تفكل » بمعنى أخذته الرعدة فى قوله :
 فما زاده الإبعاد إلا توقرا وصبرا ولم يخضع ولم يتفكل
 والذى فى اللسان : الأفكل الرعدة ولا يبنى منه فعل . وهناك افتكل
 بمعنى احتفل ، أما تفكل فلا توجد .

٥ - استخدام كلمة « التقليد » بمعنى المحاكاة ، كما فى قول النحاس :
 وهذا زجر عن التقليد . وهذا المعنى لا وجود له فى أى من المعاجم القديمة .

٦ - استعمال كلمة « الخلاج » بمعنى الخارجين على السلطان . فقد
 قال أبو عثمان السكرى فى مدح يحيى بن معاذ الذى تولى مصر عام ١٩٢ هـ :

وأباد الخلاج من كل أرض بعد ما حاد عنهم كل فارس

ولم أجد هذا الاشتقاق فيما تحت يدي من معاجم .

وأما آثار اللهجات العربية في المستوى نصف الأدبي أو اللغة الكتابية لغبر المتخصصين فأكثر وأغزر . ونضيف إلى الأمثلة السابقة التي لا بد أن تكون قد شاعت في هذا المستوى كذلك - ما يأتي :

أولا : في مجال الأصوات (١) :

١ - حلول الناء محل الثاء مثل ثلاث بدلا من ثلاث وانتشر بدلا من اثنا عشر وتعلب بدلا من ثعلب . ويروى أن عرب خيبر كانوا ينطقون الناء عوضاً عن الثاء (٢) .

٢ - كتابة القاف كافاً ونطقها قريباً من صوت الكاف . ومن المعروف أن القاف القريبة من الكاف قد انتقلت مع الهلالية وأحلافهم من القيسيين منذ القرن الرابع الهجري إلى أقطار شتى في إفريقية والأندلس . وقد عرف بها عربان أهل البادية في مصر أيام المماليك : حتى كان هؤلاء يطاردون العربان في المعارك ويميزونهم بهذه الكاف . فكان إذا ادعى أحد منهم أنه حضري قيل له قل « دقيق » فإن قالها بالكاف قتل ، وإن قالها بالقاف أطلق . وقد تحدث ابن خلدون عن هذه القاف وسماها القاف المعقودة (٣) وعدها من

(١) - يمكن في مستوى السابق من أن نصح أيدينا من أي آثار صوتية . لأن اللغة المكتوبة لا تكشف عن كيفية النطق لعدم تمثيلها أصوات العلة من ناحية ، ولهافظها على الهجاء التقليدي من ناحية أخرى حتى لو كانت الكلمة تنطق بمسيرة أخرى . أما في هذا المستوى فقد أمكننا أن نصح أيدينا عن كثير من الخصائص الصوتية وذلك بمساعدة وثائق البردي العربية المشهورة . إذ كانت لبعض العرى المكتوب بحروف قبطية والتي نشرها الدكتور صبحي أهمية خاصة في هذا المقام نظراً لتسجيل لرسم القبطي للكلمات المنطوقة بما في ذلك حروف العلة فيها . واعتدنا كذلك في كتابة هذا الجزء على مؤلفات الأقباط باللغة العربية وهي كثيرة ومتعددة

(٢) - انظر عبد المجيد عابدين : « من أصول اللهجات العربية في السودان » (ط ١٩٦٦ سنة)

ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٦ و ٥٧ .

خصائص البدو في الأقطار العربية (١) .

٣ - كتابة الذال دالا ونطقها كذلك . ومما ورد منه : « فإدا » بدلا من فإذا . و « أخذ » بدلا من أخذ . و « أحدق » بدلا من أحدق . ومن المعروف أن اللغة الآرامية التي كانت ذات تأثير بالغ في كثير من لهجات العرب قبل الإسلام وبعده كانت تبدل الذال دالا بصفة مطردة . ومن المعروف كذلك أن بنى ربعة كانوا يبدلون الذال دالا في بعض الألفاظ (٢) .

٤ - التبادل بين الصاد والسين مثل فلسطين وفلسطين . والصلطان والسلطان . وسوف وصوف ، ومسبوغة ومصبوغة . وهذا التبادل مشهور في اللهجات العربية القديمة . ومن أمثله : سفح وصفح ، وسقر وصقر ، وسراط وصراط . ولسق ، ولصق . . وبساق وبصاق ، وسفق وصفق .

٥ - إهمال الهمزة بالكلية مثل « جاني » بدلا من جاني ، و « شى » بدلا من شىء و « أردا » بدلا من أردأ و « جاهم » بدلا من جاءهم . وقضية تسهيل الهمزة - في القديم - بالحذف أو التخفيف أشهر من أن نسير إليها .

٦ - أعمال قانون المماثلة بين الأصوات إلى أبعد حد . وأمثلة ذلك من مخطوطات دير القديس مكاريوس كثيرة منها :

(أ) عنده التي كتبت عنده . وقد سبق أن شرحنا المماثلة بين حروف الحلق والفتحة . وقد جاءت هذه الصيغة وفقاً لإحدى اللغات في نطق « عند » .

(١) من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن مخطوطات دير القديس مكاريوس التي تحتل الكلمات العربية بـ موز قبطية تكشف عن أن صوت القاف حتى ذلك الوقت لم يكن قد كتب أو نطقى شكلاً هزواً بين المثقفين وأنصافهم ولم يرد فيها مثال واحد لهذه الظاهرة .

(٢) عبد الحميد عابدين : من أصول اللهجات العربية في السودان ص ٤٩ .

(ب) وَسَخ التي كتبتِ وَسَخ . والمماثلة بين الحركات ظاهرة شائعة في اللهجات العربية ؛ مثل عليهم الجلاء . فلإمه الثلث في بعض القراءات .

ثانياً : في مجال النحو والصرف :

١ - أهم ظاهرة تلفت نظر الباحث هي إهمال الإعراب أو التخلّص منه بالكلية . وأحياناً نجد بعضهم يحاول المحافظة عليه فيقع في أخطاء فاحشة . ومن أمثلة إهمال الإعراب نقتبس ما يأتي : فدفعت لهم فاس وتليس خبز وملح - اجنوا لكم قصب - قلى لى كلام . وهذه النماذج الثلاثة مأخوذة من مخطوطات دير القديس مكاريوس . وقد نددت هذه الأمثلة من النكاتب لأنه كان حربصاً على التزام الإعراب . وكان يكتب التنوين بحروف تمثل الحركة والنون مثل كلمة مسكنة التي كتبها كما لو كانت مسكنتين . ومن الأمثلة التي وردت في البرديات ومؤلفات الأقباط : حرف بحرف (بدلا من حرفاً بحرف) - الذي كان رئيس على دير - فلم يلبث قليل حتى وقع الطاعون - أقاموا ستة أشهر إلا يوم - مما بسوى دهم - كتبت إليك كتاب - عشرين رطل .

ولا شك أن إهمال الإعراب جاء نتيجة تأثير بعض اللهجات العربية الوافدة . فعلى الرغم مما هو معروف بين علماء اللغات من أن الإعراب كان من أهم الظواهر العربية الشديدة المصوق باللغة ؛ فإن كثيراً من الأمثلة اللهجية التي وردت إلينا تكشف عن اتجاه خطير نحو التخلّص منه . كما أنه من غير الممكن الزعم بأن الإعراب كان ملتزماً بين كل القبائل وعلى كل المستويات . وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس : «إن ظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة سليقة في متناول العرب جميعاً ، بل كانت صفة من صفات اللغة النموذجية الأدبية ولم تكن من معالم الكلام العربي في أحاديث الناس ولهجات

خطابهم . ويستدل الدكتور عبد الحلیم النجار (١) على شيوع ظاهرة إهمال الإعراب بأمثلة الإدغام التي وردت بكثرة في القرآن الكريم من مثل : الكتاب بالحق - النكاح حتى - الناس سكارى يشفع عنده - يبتغ غير الإسلام - اختلف فيه - البيئات ثم الصالحات جنات - البيئات ذلك - الجنة زمراً - وورث سليمان - حيث شئتما ...

وقد أدى ذلك إلى محاولة إلزام الكلمات المعربة بالحروف وجهاً واحداً . ومن أمثلة ذلك : في ذو الحجة - أبو قير (بدلاً من أبا قير) - ذا النون (بدلاً من ذي النون) - أبا أيوب (بدلاً من أبي أيوب) - (بيداه بدلاً من يديه) - إن هاتان الحصلتان (بدلاً من هاتين الحصلتين) ... الخ .

٢ معاملة الفعل المعتل الآخر معاملة الصحيح في الإعراب . ومن أمثلة ذلك : لم تدرى (بدلاً من لم تدر) - رضىوا (بدلاً من رضوا) - سُمِّبُوا (بدلاً من سموا) ... وثابت لغوياً وتاريخياً أن هذه هي التماعدة في بعض المهجئات العربية (٢) . وجاء عليها قول الشاعر :

ألم يأتيك والأنبياء تسمى بما لاقت لبون بنى زباد
وقول الآخر :

هجوت زبان نم جئت معتفداً من هجو زبان لم تهجو ولم تدع
ومنه أيضاً قول الشاعر :

نراه وقد فات الرماة كأنه أمام الكلاب معني' الخلد أصام
وخذ الظاهرة آثار باقية في لغات سامية أخرى كاللغة الحزبية التي تقول

(١) في المهجئات العربية وأنسوز اختلافها . مقال بمجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة مجلد ١٥ جزء ١ مايو سنة ١٩٥٣) ص ٥٥ و ٥٥ .

(٢) انظر د . بشر : ظرات في الصرف العربي ص ٢٢٢ و ٢٢٤ .

صَحَوْ بِدَلَا مِنْ صَحَا . وَرَمَى بِدَلَا مِنْ رَمَى . وَتَلَو بِدَلَا مِنْ تَلَا وَغَيْرَ ذَلِكَ (٢) .

٣ - معاملة المؤنث الحارِى معاملة المذكر فى كل شىء . بإعادة الضمير عليه مذكراً . ووصفه بـمذكر . والإشارة إليه باسم الإشارة المذكر مثل : هذا الدار . عينه الأيمن .. وقد كانت هذه عادة بعض العرب . وكان المبرد من أوائل من تبناها ونادوا بها إذ قال فيما نقله عنه أبو جعفر النحاس فى « إعراب القرآن » : . ما لم يكن فيه علامة التأنيث . وكان غير حقيقى التأنيث فلك تذكره نحو : هذا نار . . وقد وردت شواهد عربية قديمة مصدقة لرأى المبرد مثل قوله تعالى : السماء منغظرة به . وقول الشاعر :

والعين بالإمجد الحارى مكحون

وقول الآخر :

فلا مزنة ودوت ودقها ولا أرض أبقل (بقافسا

٤ - الوقوف على الضمير بنقل حركة آخره إلى الحرف الذى قبله مثل قولهم : ينفع نفسه - فقال له . عندئذ . وقد بدأ ذلك واضحاً فى مخطوطات دبير القديس مكاريوس .

٥ - إسقاط الفاء من جواب ، أما ، مثل : أما بيوكم قد سقطوا .. وقد ورد ذلك فى الشعر على قلة كقوله :

فأما القتال لا قتال لديكم وإنما سبوا فى عراض المواكب

كما ورد فى الحديث النبوى الشريف .

٦ - صرف الممنوع من الصرف مثل : ذبحوا ذبائحاً . والخلاف بين

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

النحاة في جواز صرف النوع من الصرف بدون علة تناولته كتب النحو بالتفصيل . وفي القرآن الكريم « سلاسل وأغلالا » : وفيه « اهبطوا مصرا » .

ثالثاً : في مجال المفردات والتعبيرات :

في هذا المستوى اللغوي شاعت عبارات وألفاظ كثيرة لها أصول عربية واضحة ، ولكن ربما تخرج المتحفظون من استعمالها ، أو ربما لم يكتب لها الشيوع في البلاد العربية فظلت لها صفة محلية أو الإقليمية ، مما شجع بعض اللغويين أن يحكموا عليها من أجل ذلك بالابتذال أو غير الفصاحة . ومن أمثلة ذلك :

١ - استعمال لفظي « قبلي » و « بحري » في مقابل جنوبي وشمالى . وقد تردد ذلك كثيراً في وثائق البردى وبخاصة في وثائق البيع ووصف حدود الأراضي أو المنازل . وقد تنبه المقرئ إلى هذه الخاصة المصرية فقال في مخطوطه : « إلا أن أهل مصر يستعملون في تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلىة . ويقولون الحد القبلى ولا يقولون الجنوبي . وكذلك يقولون الحد البحرى ويريدون الشمالى .

٢ - استعمال كلمة « المزين » بمعناها الحديث الذى نستعمله فيها الآن وهو الحلاق .

٣ - استعمال كلمة « أمهات » جمعاً لأب : وقد وردت في مخطوطات دير القديس مكاربوس . ولم أدر عليها في معاجمنا اللغوية . ولعل منشأها القياس الحاطى لهذه الكلمة على « أمهات » . ومن الجموع الغربية كذلك جمع « سوط » على « أسباط » و « نجيب » على « نجان » : و « جنة » على « أجنة » .

٤ - استعمال كلمة « بيت الراحة » بمعنى مكان قضاء الحاجة ، كما وردت في المخطوطات الموجودة بمكتبة دير القديس مكاربوس .

٥ -- استعمال كلمة « ثقيل » بمعنى جندي مدجج بالسلاح . وقد ورد ذلك في وثائق البردي .

٦ -- استعمال كلمة « أسباطة » (تحرفت الآن إلى سباطة) بمعنى العذق أو القنو . وعلى الرغم مما قيل عن أصلها اليوناني فإن صلتها الظاهرة بمادة « سبط » العربية تجعلنا نقول بعربيتها . ومن معاني هذه المادة : السبّط : الشجرة لها أغصان كثيرة وأصلها واحد . والسبّط ولد الولد والقبيلة .

٧ -- وهناك بعض تعبيرات مصرية وردت إشارات خاطفة إليها في مؤلفات كراع النمل اللغوي المصري الذي مات في القرن الرابع الهجري ومنها : رف الحاجب : اختلج -- فش القفل : فتحه بغير مفتاح -- فحم الصبي : بكى حتى ينقطع صوته (١) .

— ٣ —

وأما آثار اللهجات العربية في مستوى الخطاب العادي أو اللغة الدارجة فأكثر من أن تحصى : وتعتبر اللهجات العربية -- بلا شك -- المصدر الرئيسي لها . وإذ لم يكن السهل جداً رد كثير من خصائصها إلى أصول عربية : سواء احتفظ بهذه الأصول كما هي : أو لحقها تعديل وتغيير . ومن أهم تلك الآثار :
أولاً : في مجال الأصوات :

نضيف إلى الأمثلة السابقة فيما مضى ما يأتي :

١ -- كسر حرف المضارعة -- ماعدا همزة المتكلم خوفاً اختلاص صيغة المضارع بصيغة الأمر -- مثل يكتب -- تكتب -- نكتب . وظاهرة الكسر هذه معروفة في تاريخ اللهجات العربية : واطردت في بعض اللهجات القديمة .

(١) انظر المنجد في اللغة ص ١٣٦ و ١٣٧ و ١٨٦ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٩٠٤٠٠٠٠

٢ - إبدال القاف همزة في القاهرة وبعض حواضر الوجه البحرى .
ولذلك أصول قديمة على ما قرره أنوليتان في بحثه ، بقايا اللهجات العربية
في الأدب العربى . وهو موجود فى أسماء الأعلام الفينيقية . وقد نقل
السيوطى تصوراً بمعنى نصوق (أى توسخ) وذكر الأب أنستاس : أفز بمعنى
قفز واستنشأ بمعنى استنشق .. إلخ . وعلى الرغم من أن مخطوطات دير القديس
مكارىوس لا تعبر عن صوت القاف برمز الهمزة فليس فى ذلك دليل على عدم
حدوث هذا التطور فى العصور السحيقة . فإن لغة هذه المخطوطات - برغم
ما فيها من مسحة عامية - خليط من العامية والفصحى . وقد التزم كاتبها -
فى كثير من الأحوال - الاتجاه الفصحى مفضلاً إياه على الجانب العامى .

٣ - حذف نون ، من ، و ، عن ، إذا وليهما ساكن مثل ماليت
عالميت . وتلك خاصة من خواص خثعم وزبيد من قبائل كهلان اليمنية .

٤ - النطق الصعيدي لصوق القاف والجيم بعكس اتجاهها بدوياً كما سبق
أن ذكرنا .

٥ - النطق القاهرى لصوت الجيم له أصل عربى فى اللهجات العربية
القديمة . وقد أثبت أنوليتان أن نطق الجيم الأسمى كان كما هو عليه الآن فى
القاهرة . وقدم أدلة على ذلك من الكتب والنقوش اليونانية التى ذكرت فيها
أسماء عربية . ومن نقش وجد فى « أم الجمال » ، بيادية الشام مكتوب
بحروف نبطية . ومن المقارنات السامية المتعددة . أما نطقها مع التعطيش فكان
نطق القرشيين فى زمان النبي (١) . وصار نطق القرآن الكريم .

ثانياً : فى مجال النحو والصرف :

١ - إلغاء الإعراب كما سبق أن فصلنا .

(١) بقايا اللهجات العربية . بحث مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول ، مايو سنة ١٩٤٨
(ص ١٠٠) .

٢ - قرن الباء بحرف المضارعة كقوظم باكتب ويكتب .. واستخدام
هذه الباء مع المضارع قديم جداً في اللغات السامية . فقد وردت في نقوش
كنعانية من شمالي سورية ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

٣ - لصق نون وقاية باسم الفاعل المضاف إلى ياء المتكلم مثل ضاربنى
وفاهمنى . وقد ورد هذا في الشعر القديم . ومنه قول الشاعر :

هم القائلون الخير والآمرونه إذا ما خشوا من محدث الأمر معظماً

٤ - الاستغناء عن صيغة س ع / س ع / س ع في الماضي المعتل
الآخر بالياء مثل بقى . والاستعاضة عنها بصيغة س ع / س ع ع مثل بقنا .
وقد تردد ذلك كثيراً في أوراق البردي العربية وله أصل في اللغة .

ثالثاً : في مجال المفردات :

الأمثلة كثيرة للكلمات المخرفة عن أصل عربي أو التي ترجع إلى لهجة عربية
معينة . ومن ذلك :

١ - كلمة « جلية » المخرفة عن جلاب .

٢ - « مترد » التي يكثر استعمالها في الريف . وهي تحريف لكلمة
« مترد » اسم المكان من الفعل ثرد . يقال : ثردت الخبز ثرداً كسرتة فهو
ثريد ومثروود .

٣ - « نبوت » التي تعني الفرع النابت من الشجر . وتطلق -
كما نص صاحب التاج - على العصا المستوية في لغة المصريين .

٤ - « إيش » التي تردت كثيراً في الوثائق البردية ومخطوطات الأقباط
بمعنى أى شيء . وهو شخف منها كما نص عليه ابن السيد في « شرح أدب
الكاتب » ، وصرحوا بأنه سمع عن العرب .

٥ - كلمة « ست » التي سبق الحديث عنها .

٦ - قول « مدشوش » : فقد حكى ثعلب في المجالس جششت الحنطة ودششتها . وعلى هذا فقول العامة مدشوش ودشيش له أصل عربي بخلاف من زعم أنه معرب عن القبطية .

٧ - استعمال لفظ « امبارح » الذي يبدو أنه النطق الحميري للفظ « البارحة » بإبدال اللام ميما . وعليه جاء الحديث النبوي : ليس من امبر امصيام في امفر (ليس من البر الصيام في السفر) . وبرى أنوليتان أن هذا ليس إبدالا وأن « أم » أداة تعريف مستقلة .

٨ - استعمال كلمة « بيع » للأطفال خاصة بمعنى انتهى أو لم يبق . وأصله بجياج . ففي لسان العرب : قال اللحياني : زعم الكسائي أنه سمع رجلا من بني عامر يقول : إذا قيل لنا أبقى عندكم شيء ؟ قلنا : بجياج . أي : لم يبق .

٩ - استعمال كلمة « ريت » بدلا من « ليس » . والتبادل بين الراء واللام مشهور في كتب اللغة . وروى أن بني قيس كانوا يقولون رعل في لعل .

الفصل الخامس

مؤثرات أخرى

إلى جانب العاملين السابقين وجدت عوامل أخرى كان لها تأثير ثانوي على عربية مصر ، وتمثل في :

١ - عامل النزوع نحو السهولة وتوفير الجهد (١) .

٢ - عامل اللامبالاة .

٣ - عامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية ، مثل اللاتينية والفارسية والتركية .

أما في المستوى الأول فلا تظهر بوضوح آثار هذه العوامل . كما لم تنفخ آثار العاملين الأولين . ولا يوجد اختلاف جوهري بين كتابات هذا المستوى في مصر ومقابلة في البلاد العربية الأخرى . والسبب يتمثل في الحقيقة التي كان مسلماً بها في تلك الفترة وهي أن اللغة العربية النموذجية تتمثل في القرآن والأحاديث النبوية ، وفي الشعر والنثر التقليديين . وقد أدى هذا بالكتاب والشعراء والأدباء إلى أن يحاولوا محاكاة هذه النماذج الأدبية . وأن يكون غاية ما يرجوه

(١) منذ عصر مبكر اختلف المفكرون هل كانت اللغات تنجح إلى السهولة أم إلى التعقيد .
يرى على رأس الفريق الأول النحوي الأمريكي Whitney الذي يقرر أن كل ما نكشفته من تطور
في اللغة ليس إلا أمثلة لدرجة اللغات التي توفر الجمهور الذي يبذل في النطق . (انظر الدكتور
أبوب : التطور المفرد ص ٣٩ و ٤٠) .

الواحد منهم أن يتبع تقاليدنا حرفياً . وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، ومن المحاولات الصادقة للأدباء ألا يخيدوا عن الأسلوب الراقى والمستوى الأدبي النموذجي ، فإن الفحص الدقيق لتلك الأساليب يكشف عن أخطاء ومخالفات للتقاليد الكتابية ، ولكنها — والحق يقال — تبدو فضيلة جداً . ومن ذلك قول ابن الدابة : لم يبق لي إلا جارية" .. ومتزلاً . والصواب « ومنزل » . ومن طريف ما يروى في ذلك أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدى وعنده أبو إسحاق النجيري فقال له : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ . بجر الأيام . فابتسم كافور إلى أبي إسحاق النجيري فقال أبو إسحاق على الفور :

لا غرو أن لحن الداعي لسيدنا وغص من هية بالريق والبحر
فإن يكن خفض الأيام عن دهش من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد نفاءت في هذا لسيدنا والفأل نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب وأن دولته صفو بلا كدر

فأمر له كافور بثلاثمائة دينار ولابن عباس بمثلها .

ومن الكلمات المقرضة :

١ - كلمة جسطال أو قسطال التي تعني حاكم مصر . ثم استعملت في معنى حاكم مقاطعة أو مديرية . وقد تردت كثيراً في وثائق البردي بما فيها رسائل قررة بن شريك المبكرة . وقد ذكر جروهمان أنها مقرضة من أصل يوناني أو لاتيني .

٢ و ٣ - كلمة مازوت وجمعها موازيت التي وردت في المؤلفات العربية واستعملها القريري في الخطط إذ قال : « نُزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها » . ومعناها بالتعبير الحديث عمدة القرية أو حاكم المدينة . وقد ذكر جروهمان أن أصلها يوناني أو لاتيني .

أما « الكورة » فتعنى القرية أو المحلة أو المدينة . وهى كلمة مفترضة كذلك وترددت فى رسائل قره بن شريك .

ويبدو أن هذه الألفاظ -- وربما غيرها -- كانت خاصة بالرسائل الرسمية أو بلغة الإدارة .

وأما المستويان الثانى والثالث -- وسندبجهما فى هذا الفصل -- فيظهر فيهما بوضوح آثار هذه العوامل سواء فى مجال الأصوات أو النحو والصرف أو المفردات .

أولاً : فى مجال الأصوات :

من أمثلة ذلك :

١ - إبدال الذال زايما الذى يبدو أنه لا يمثل عنصراً لهجياً أصيلاً . وإنما هو استخفاف فى كيفية النطق وبذل جهد أقل .

٢ - إبدال الغاء ضادا مثل « احفض » بدلا من احفظ التى وردت فى وثائق البردى .

٣ - وقد ورد فى بعض وثائق البردى إبدال الضاد طاء مثل « محطره » بدلا من محضره و « فطله » بدلا من فصله .

٤ - قلب الزاى دالا كما فى كلمة جزاء التى كتبت فى الوثائق البردية « جدى » .

٥ - التخلص من حرف العلة المزدوج عن طريق قلبه إلى حرف علة طويل . ومن أمثلة ذلك « بيئت » التى تحولت إلى « بيت » :

٦ - الإدغام بعد قلب أحد الصوتين المتقاربين إلى صوت مماثل مثل « بعث » فى مكان بعثت التى وردت فى وثيقة بردية كتبت فى سنة ٢٧٨ هـ :

٧ - فك ياء النسب المشددة والاستعاضة عنها بياء مد مثل « الشقي »
بدلاً من الشقيّ ، وقد كتبت الكلمة في مخطوطات دير القديس مكاربوس
هكذا .

ثانياً : في مجال النحو والصرف :

والتغيرات في هذا المجال كثيرة جداً ومتنوعة . ومن أهمها :

١ - أخطاء في الإعراب مثل : فهذا قياساً ومثلاً - لا يتركب أحد -
لئلا ينظران - كان لسليمان عبداً .

٢ - خلق صيغ صرفية جديدة لا وجود لها في العربية الكلاسيكية مثل
صيغة انفعّل مكان تفعل . ومن أمثلة ذلك « اتجسد » (تجسد) و « اتوكل »
و « اترجا » . أو نقل فعل من صيغة إلى صيغة أخرى مثل استعمال الفعل اتلىّ
بدلاً من الفعل تولى ، وأورى بدلاً من الفعل أرى .

٣ - أخطاء في باب العدد مثل تسعة ساعات (تسع) . أربعة عشر ليلة
(أربع عشرة) : اثنا عشر سنة (اثنتا عشرة) . بعد مائة اثنين وستين (واثنين) .

٤ - وضع الذي مكان التي مثل : الأموال الذي شرحتها - ثيابه الذي .

٥ - استعمال اسم الإشارة استعمالاً خاطئاً مثل : أربع الدراهم هذا .

٦ - تحويل صيغة الأمر فعّل إلى فعّّل بقصد تحقيق المماثلة وتوفير
الجهد مثل خيَّطها بدلاً من خيطها .

٧ - إعادة الضمير مجموعاً على غير العاقل الجمع كقول السمنودي
في مقدمة كتابه في نحو اللغة القبطية : كتب الله المستعملة في الكنيسة - وما ينصاف
إليهم ، وكقول مخطوط مكتبة دير القديس مكاربوس : الأعمال كلهم .

ثالثاً : في مجال المفردات :

استعملت كلمات كثيرة لها أصول أجنبية مختلفة ، كما حرفت كلمات
أخرى عن صورتها الأصلية أو معناها الأصلي . فمن النوع الأول :

- ١ - كلمة « بُرْش » وهي تركية ومعناها حصير :
- ٢ - كلمة « شوشة » وهي موجودة في السريانية بصيغة شُشا ومعناها كُبة قطن .
- ٣ - كلمة « قَلَابَة » بمعنى بيت الأستف أو بيعة النصارى . وهي كلمة لاتينية بمعنى خلوة ، ثم أخذها السريان فصدّرت قلينا ، ثم أخذها العرب فقالوا قلابة وجمعوها على قلالى .
- ٤ - كلمة « روزنامج » بمعنى دفتر اليومية المأخوذة عن الفارسية : « روزنامه » أو « روزنامه » .
- ٥ - كلمة « سفتجة » بمعنى إِبصال وهي فارسية .
- ٦ - كلمة « اسبيذاج » المأخوذة من أصل آرامى . ومعناها رماد الرصاص .
- ٧ - كلمة « بوش » بمعنى عديم الحدودى أو نخال . وهي أصلاً تركية .
- ٨ - كلمة « زير » للإثناء النخارى المعروف . وأصلها أكادى ثم انتقلت إلى الآرامية ثم العربية .
- ٩ - كلمة « سنل » أو « سطل » نخاس . وهي مستعارة من اللاتينية .
- ١٠ - كلمة « أوسية » بمعنى مزروعة .

ومن النوع الثانى :

- ١ - كلمة « بجزأ » التى ترجع إلى الأصل العربى بعنق . فى اللسان : البعثة خروج الماء من الخوض . وتبعثق إذا انكسرت منه ناحية ففاض منها .
- ٢ - كلمة « حَبِط » فى قولهم « حَبِط حائطاً » المحرفة عن حوط . ومثله كلمة « المغاير » المحرفة عن المغاور .

٣ - استعمال الكلمة في معنى جديد مثل كلمة « تَمَلَّى » التي وردت في البرديات بمعنى دائماً أو باستمرار ، وهو نفس معناها العامي الحديث .
٤ - قولهم جمادى الآخر بدل الآخرة . ولا زال هذا التعبير شائعاً حتى يومنا هذا .

٥ - استعمال كلمة « دعوة » في معنى دعوى أو قضية . وقد ورد ذلك في وثائق البردى .

ومما هو جدير بالذكر ، أن كتاب وثائق البردى كانوا في بعض الأحيان يستعملون اختصارات في الكتابة تحمل محل كلمة أو أكثر . ومن ذلك :

واعن	اختصار	وأدى عن
أب	اختصار	أرادب
ولب	اختصار	وطالب
به	اختصار	بتاربعه

كذلك مما تجدر الإشارة إليه أن الأخطاء الإملائية فاشية جداً في هذه البرديات وفي غيرها من كتابات الأقباط . ومن أمثلة ذلك :

١ - كتابة التاء المربوطة تاء مفتوحة كثيراً مثل سنت (سنة) ، امرأت (امرأة) ، ابنت (ابنة) . المسماة (المسماة) .

٢ - كلمة شيء كثيراً ما كتبه شاي . وهذا من الكتابة الغريبة :

٣ - كتابة ذلك وهذا وهذين بالألف . :

٤ - عدم كتابة ألف أمام واو الجماعة .

٥ - كتبت الكلمة بطاء هكذا : بطؤ وذلك في وثائق البردى :

٦ - كتابة الياء ألفاً مثل ادعا - فمتا - كفا - تقوا - المسما - الأخره

٧ - وصل أكثر من كلمة مثل كتبتني (كتب في) : وكتبشهادته
(وكتب شهادته) . وذلكنى (ذلك في) : بكلما (بكل ما) .

وهناك إلى جانب ذلك تعبيرات عليها مسحة العامية استعملت في الوثائق
البردية مثل :

١ - وية واحدة قمح بدلا من : وية قمح واحدة أو وية واحدة
من القمح .

٢ - وقد شناه إلى دكان المسار بدلا من حملناه أو نقلناه .

٣ - وديت لك بدلا من أديت إليك أو أرسلت إليك .

٤ - نسيت أذكر لك :

٥ - وكانوا الخراسانيين قد جابوا مراكب عدة .

٦ - صلينا على حافة البحر في الغيط .

خاتمة
دراسة مقارنة
مدى التأثير المتبادل بين القبطية والعربية

والآن .. وقبل أن نضع القلم نحب أن نتعرض لقضية أخرى نخلو لكثير من الدارسين أن يخوضوا فيها، وهي قضية تأثير العربية على القبطية . ومقارنته بتأثير القبطية على العربية :

ولن نشط نحن في الحكم فنعطى أحكاماً جزافية أو بالحملة . أو نقول عن العربية ما قاله الدكتور صبحي عن القبطية من أنها سبب اختلاف عربية مصر - وبخاصة عاميتها - عن سائر العربيات . وما ادعاه من أن مفردات عامية مصر مليئة بأعداد ضخمة من الكلمات ذات الأصل المصري القديم أو القبطي بدرجة تثير الدهشة والعجب . ولكننا سنعرض القضية عرض منصف بلتزم الحياد . وبوجه تصوير الحقيقة .

لقد سبق أن تعرضنا بالتفصيل لقضية التأثير القبطي على عربية مصر . وخرجنا بنتيجة محددة هي انحصار هذا التأثير في جانب المفردات فقط . وحتى في هذا الجانب وجدنا التأثير ضيقاً لا يتجاوز بضع عشرات من الكلمات . وليس هذا فحسب . فقد وجدنا أن قوائم هذه الكلمات مليئة بالألفاظ يونانية تسرب بعضها إلى العربية عن طريق القبطية؛ وبعضها عن طريق مباشر ، وبعضها في بلد آخر غير مصر . وربما كانت ضالة عدد الكلمات القبطية وحدها الموجودة في عربية مصر هي السبب المباشر الذي حدا الدكتور جورجي

صبحى وغيره أن يدمجوا في قوائمهم الكلمات القبطية واليونانية حتى يبدو الأثر قوياً . ومعنى هذا أننا لو نحينا جانباً مثل هذه الكلمات ، ورددنا الكلمات ذات الأصل العربى إلى أصولها . واستبعدنا أسماء الأعلام نهائياً ، لانكمش الرقم جداً ، ولم يبق عندنا شيء ذو بال .

ونضيف إلى هذا أن الدراسات اللغوية القبطية لم تترك أى آثار على الدراسات اللغوية العربية في مصر . ويبدو أن الأقباط لم يكن لهم دراسات لغوية قديمة ذات شأن ، وإلا انعكس أثرها على لغويي مصر المتقدمين ، وظهرت ملامحها في كتب النحور واللغة القبطية التى تنابع ظهورها بعد القرن الحادى عشر الميلادى . فإذا نحن انتقلنا إلى الجانب الآخر من القضية وأردنا أن نسجل آثار العربية على القبطية . وجدناها كثيرة ومتنوعة كما يلي :

١ - صرح الأستاذ William Worrell المتخصص في الدراسات القبطية بأن الأصوات القبطية قد انحلت تحت ضغط الأصوات العربية ، وأن فكرة كتابة القبطية بحروف عربية (١) قد أدت ولا شك إلى اختفاء الأصوات القبطية التى لم يمكن أن تمثلها حروف عربية لعدم وجودها (٢) . وصرح في موضع آخر بأن الأقباط الذين كانوا يتكلمون العربية ، لابد أن تكون لغتهم القبطية قد تعربت (٣) .

٢ - فحص Worrell بعض الوثائق القبطية المكتوبة بحروف عربية وانتهى إلى نتيجة فحواها أن لغة هذه الوثائق ، يظهر بوضوح كاف وقوعها تحت تأثير العربية للدرجة أنها لا يمكن أن يعتمد عليها في دراسة الأصوات القبطية .

(١) عثر على نص قبطى مكتوب بحروف عربية نشره Galtier عام ١٩٠٦ . انظر W. Worrell في كتابه Coptic Sounds ص ٣ و ٤ و ٦ .

(٢) Coptic Sounds ص ٦ .

(٣) المرجع ص ١٢٢ .

وأن حروف العلة فيها هي تلك الموجودة في العربية (١) :

٣ - نشر Chassiant أوراقاً بردية طيبة قبطية كتبت في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين عثر عليها قرب إخميم. وقد لوحظ أنها تشتمل بكثرة على مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية وأحياناً بحروف عربية . كما لوحظ أن كاتب هذه الأوراق كثيراً ما كان يفضل استعمال المصطلح العربي على مقابله القبطي أو اليوناني (٢) :

٤ - قارن « اميلينو » بين وثيقتين قبطيتين . كتبت الأولى في ولاية عبد العزيز بن مروان ، والثانية في القرن الثالث عشر الميلادي في عصر الملك الكامل ، وحكم بأن « لغة الوثيقة الأولى لغة العصور المزدهرة وليس فيها ما يشعر بالاضمحلال » . أما الثانية فتدل على أن « اللغة القبطية قد أصابها الفساد حيث أدخلت فيها كلمات عربية . ولما كان المؤلف يخطئ في التعبير فقد كان فهم الوثيقة من الأمور الصعبة (٣) .

٥ - عثر على قصة قبطية مكتوبة في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . وقد ظهر فيها بوضوح ضعف المؤلف في اللغة القبطية ، واستعماله لكلمات عربية كثيرة . (٤) .

٦ - عثر على قصيدة قبطية تعالج موضوعات دينية تهذيبة وترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي ، وقد كتبت بلهجة قبطية صعيدية . وقد عقب Worrell على القصيدة بقوله « اللغة بوجه عام مختلة . وأسوأ من هذا فالأبيات منظومة على الطريقة العربية » (٥) .

(١) المرجع والعنونة السابقان .

(٢) دائرة المعارف Kibt .

(٣) جاك تاغر ص ٣٠٦ .

(٤) دائرة المعارف Kibt .

(٥) A Short Account ص ١٧ .

٧ - أما آثار الثقافة العربية على مفكرى الأقباط فكثيرة ومتنوعة .
ومن أمثلتها :

(أ) انعكاس الثقافة الإسلامية حتى في كتابات الأقباط الدينية . وأقرب مثال لذلك كتاب الصنى بن العسال المسمى « بالمجموع الصفوى » الذى يتناول فقه المذهب الأرثوذكسى . وواضح فى هذا الكتاب تأثير المؤلف بالفقه الإسلامى فى تقسيم الكتاب إلى قسمين . عبادات ومعاملات . وفى عناوين أبوابه . وحتى فى تقريره للأحكام . وإليك النص التالى الذى يوضح هذه الفكرة : وهو عن آداب القاضى :
ويساوى بين الحصين فى اندخول والجلوس والإقبال عليهما والإنصات إليهما والمخاطبة لهما والعدل فى الحكم لهما أو عليهما . ولا يسارر (كذا) أحدهما . ولا يلقنه حجة ، ولا يختصمه ؛ ولا يحتج له ولو كان قوياً وضعيفاً ومشروفاً وشريفاً حتى لا يطمع شريف فى حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله (٤) .

(ب) تأثر النحاة الأقباط فى كتبهم التحوية بمجهودات العرب فى ذلك . وأنت تخرج بهذه النتيجة بعد تصفحك لكتب النحو القبطية المتقدمة . حيث تجد تشابهاً عجيباً بين المنهجين . فالكلمة عند ابن كاتب قيصر تنقسم إلى اسم وفعل وحرف . والاسم هو الذى ينجر به أو ينجر عنه ، وهو ما دخله أحد أدوات التعريف أو التنكير أو التذكير أو التأنيث والجمع وما أشبه ذلك .. والحرف مادل على معنى فى غيره ولم يستقل بنفسه . ولا ينجر به ولا ينجر عنه ... ومنها الحروف التى تدخل على المبتدأ أو الخبر وهى إن وأخواتها... الخ . هل تصدق أنك تقرأ فى كتاب يعالج نحو اللغة القبطية ؟

ولم يكن هذا سبيل ابن كاتب قيصر وحده ، بل كان سبيل النحاة جميعاً

(١) المجموع الصفوى ص ٣٦٤ .

حتى ضاق بهم مؤلف قبلى آخر اسمه الشيخ الوجيه القليوبى ، فقال فى مقدمة كتابه المسمى « بالكفاية » : « وقد وضع فى ذلك (النحو القبطى) مقدمات . إلا أن المفسرين لغلبة أحكام تصريف اللغة العربية عليهم قاسوا أكثر أحكام القبطى عليها . وليس الأمر كذلك : بل من شرط المخرج من لغة إلى أخرى أن يجرد ذهنه عن اللغة الغالبة . ويذهل عنها . ثم يذوق اللغة المخرجة . ويستحضر جميع أجزائها . ويستقرى مواضع استعمال أدواتها » .

٨ - وأخيراً يكفينا فى مجال الموازنة أن نذكر القارئ بما سبق أن قررناه من هزائم اللغة القبطية المتكررة أمام هجمات العربية ، وفقدائها قلاعها واحدة بعد الأخرى . فما أن جاء القرن العاشر الميلادى حتى كانت قد اهتزت عرشها وثلت أركانها وأصبحت لغة ميتة أو شبه ميتة . وليس يفوق الموت شيئاً آخر . وقد سبق أن ناقشنا مراحل احتضار اللغة القبطية وأقمنا الأدلة على موتها المبكر . ونضيف الآن ما يأتى إلى ما سبق :

(أ) أن كتب النحو القبطى المؤلفة بلغة عربية بدأت تظهر فى القرن الحادى عشر الميلادى . وقد بدأها أنناسيوس أسقف مدينة قوص . وتلاه مؤلفون آخرون مثل ابن كاتب قيصر والشيخ الوجيه القليوبى والمؤمن ابن العسال وابن الدهيرى والسمنودى . وواضح أنها جميعاً وضعت لخدمة القارئ الذى يعرف العربية ويريد أن يتعلم القبطية . ولذا فهى تتخذ المثال العربى أصلاً ثم تشير إلى مقابله فى القبطية .

(ب) عثر فى بعض الأديرة على مخطوطات قبطية قديمة مليئة بحواش وإضافات باللغة العربية مثبتة على جوانب المخطوطات . ومعنى هذا أن معظم الرهبان ورجال الدين كانوا قد تعلموا القبطية كلغة ميتة أو لغة ثانية ، وأنهم كانوا يفضلون إثبات تعليقاتهم بلغتهم الأولى ، وهى العربية .

(ج) من الثابت قطعاً أنه في أوائل القرن العاشر تمت ترجمة « سيرة جون الصغير » إلى السريانية من النص العربي وليس من الأصل القبطي .

(د) أنه بمجرد مكتبة دير القديس مكاربيوس لوحظ أنها فقيرة جداً إلى مخطوطات تنتمي إلى القرون ما بين الحادى عشر والثالث عشر . وقد فسر المستشرق H. White في مقدمة كتابه :

The Monasteries of the Wadi'N Natrun « ذلك بقوله : « هذا التدهور يعود إلى حد ما إلى زهد الناس في قراءة الأدب الدينى : وإلى حد أكبر إلى أن اللغة القبطية كلغة حية كانت قد وقعت في هذه الفترة فريسة بين مخالب اللغة العربية » .

(هـ) كذلك لوحظ أن القسم العربى من المكتبة كبير جداً مثل القسم القبطى أو أكبر منه . وقد رجح White أن يكون رهبان الدير قد فضلوا في قراءاتهم القراءة باللغة العربية ، وإن كانوا قد احتفظوا بالقبطية في قداساتهم الكنسية .

(و) عشر ضمن مخطوطات مكتبة الدير السابق الإشارة إليه على معاجم أو قوائم بالألفاظ هدفها مد يد العون لقارئ العهد الجديد باللغة القبطية .

(ز) عشر في نفس المكتبة على بقايا لعشر قوائم تعطى المقابلات العربية للكلمات القبطية (أو اليونانية) المتعلقة بالكتاب المقدس والطقوس الدينية ، يرجع معظمها إلى القرن الثالث عشر الميلادى . والملاحظ أنها كلها معاجم قبطية عربية ، ولا يوجد من بينها معاجم عربية قبطية (١) .

(ح) أن نشاط اللغويين الأقباط المتقدمين أمثال إخوة العسال وابن كبر

لم يتم بهدف تيسير تعليم الشعب اللغة: بل بهدف تزويده بمساعد بعينه على فهم لغة القداس وطقوس العبادة .

(ط) أن آخر محاولة بذلت لإحياء اللهجة القبطية الصعيدية تمت في القرن العاشر الميلادى حيث ظهرت مؤلفات كثيرة اشتملت على نماذج كلاسيكية للأدب الصعيدى والإنجيل وسير القديسين والشعائر الدينية . ثم لم تتم محاولات بعد ذلك .

فلعل القارئ يكون قد تبين الآن بنفسه خطأ ما رده الدكتور صبحى عن شدة تأثير القبطية على العربية وما ادعاه من أن آثار القبطية فى العربية أكثر من آثار العربية فى القبطية . فقد ظهر أن لوجه للمقارنة مطلقاً ، بالإضافة إلى تمكن اللغة العربية من القضاء على القبطية . وليس بعد الموت أثر يفوقه .

ولن نجد ما نختم به بحثنا خيراً من قول الدكتور ولسن بشاى : « ومهما يقل عن آثار اللغة القبطية التى تركتها على اللغة العربية عندما كانت اللغتان مستعملتين جنباً إلى جنب . وكانت اللغة القبطية قوية . وذلك خلال المرحلة الأولى من الصراع . فإن هذه الآثار لا بد وأن تكون قد زالت أو تلاشت تماماً حينما اختفت اللغة القبطية من الوجود كلغة متكلمة وحلت محلها اللغة العربية » .

• • •

وبعد : فإن قصة اللغة العربية واستقرارها فى مصر من القصص الفريدة التى لا تتكرر كثيراً فى التاريخ . ويكفى أن نعلم أن مصر قد تتابع عليها حكام أجنبية على امتداد تاريخها الطويل من هكسوس وآشوريين وفارسيين ويونان ورومان دون أن يتمكن أحد منهم من فرض لغته على مصر . والقضاء

على اللغة الوطنية المصرية تماماً . إلى أن جاء العرب فتمكنوا من فرض اغتيم وإحلالها محل القبطية . وما أن تمكنت اللغة العربية في مصر حتى رسخت يسوخ الجبال . وقاومت هجمات الاستعمار المتنوعة . واستطاعت أن تصمد أمام تيار الغزو الأجنبي ، سواء كان تركيا أو فرنسا أو إنجليزياً ، وظلت – ولن تزال – لغة مصر رائدة القومية العربية .

اهم المراجع

أولا : المراجع العربية

- ١ - أحسن التقاسيم : المقدسى ، ١١ بريل ١٩٠٦٥ .
- ٢ - أخبار سيبويه المصرى ، ابن زولاق ، ط أولى ١٩٣٣ .
- ٣ - أصول الكلمات العامية ، حسن توفيق ، مصر ١٨٩٦ .
- ٤ - أقباط ومسلمون ، دكتور جاك تاجر ، مصر ١٩٥١ .
- ٥ - الأدب العربى فى مصر ، دكتور عبد الرزاق حميدة ، مصر ١٩٥١ .
- ٦ - الأدب القبطى قديماً وحديثاً ، محمد سيد كيلانى ، ط أولى ١٩٦٢ .
- ٧ - الأساس المتين فى ضبط نطق لغة المصريين : عبد المسيح المسعودى ، ط مصر .
- ٨ - البيان والإعراب ٤١ بأرض مصر من الأعراب ، المقرئى ، تحقيق الدكتور عبد المحجد عابدين ، ط أولى ١٩٦١ .
- ٩ - البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ط أولى .
- ١٠ - تاريخ مصر الإسلامية الجزء الأول للدكتور جمال الدين الشيال ط دار المعارف ١٩٦٧ .
- ١١ - التطور اللغوى ، دكتور عبد الرحمن أيوب .
- ١٢ - حضارة مصر فى العصر القبطى ، دكتور مراد كامل ١٩٦٨ .
- ١٣ - الخطط ، المقرئى ، بولاق ١٢٧٠ هـ .

- ١٤ - الدخيل في اللغة العربية ، دكتور فؤاد حسنين ، مجلة كلية الآداب :
- ١٥ - الرسالة ، الإمام الشافعي : تحقيق أحمد شاكر ، ط أولى ١٩٤٠ .
- ١٦ - السلم الكبير ، ابن كبر ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
- ١٧ - السلم المقتنى : ابن العسال ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
- ١٨ - العربية ، يوهان فوك ، ترجمة دكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ١٩٥١ .
- ١٩ - اللغة القبطية . جرجس فيلوثاؤس عوض ، مصر ١٩١٦ .
- ٢٠ - المتوكلى ، السيوطى ، دمشق ١٣٤٨ هـ .
- ٢١ - المجلة القبطية ، جرجس فيلوثاؤس عوض .
- ٢٢ - المجموع الصنفى : ابن العسال ، تحقيق جرجس فيلوثاؤس عوض ، ط أولى :
- ٢٣ - المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية : دكتور أدواف جروهمان دار الكتب ١٩٣٠ .
- ٢٤ - المحكم في أصول الكلمات العامية ، دكتور أحمد عيسى . ط أولى ١٩٣٩ .
- ٢٥ - المقدمة في نحو اللغة القبطية ، الوجيه القليوبى ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
- ٢٦ - المكافأة ، ابن الداية ، ط أولى ١٩١٤ .
- ٢٧ - المنجد في اللغة لكراع النمل ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٠ لغة .
- ٢٨ - النثر النقى في القرن الرابع ، دكتور زكى مبارك ، ط أولى ١٩٣٤ .
- ٢٩ - النجوم الزاهرة ، ابن تغرى بردى ، ط دار الكتب .
- ٣٠ - النحو الواقى ، عباس حسن ، ط المعارف .
- ٣١ - الولاة والقضاة ، الكندى ، بيروت ١٩٠٨ .

- ٣٢ - أهل الذمة في الإسلام ، أ . س . تروتون : ترجمة حسن حبشي ، دار الفكر ١٩٤٩ .
- ٣٣ - بقايا اللهجات العربية . دكتور أنوليمان ، مجلة كلية الآداب . مايو ١٩٤٨ :
- ٣٤ - تاريخ ابن الراهب : بيروت ١٩٠٣ .
- ٣٥ - تاريخ الأقباط . زكي شنودة ط أولى ١٩٦٢ .
- ٣٦ - تاريخ الأمة القبطية . لجنة التاريخ القبطي . ط ثانية ١٩٢٢ .
- ٣٧ - تاريخ الأمة القبطية ، أ . ل . بتشر : ترجمة اسكندر تادرس ، النجالة ١٩٠١ .
- ٣٨ - تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني : أكسفورد ١٨٩٤ .
- ٣٩ - تاريخ العرب قبل الإسلام : دكتور جواد علي : ط المجمع العلمي العراقي .
- ٤٠ - تاريخ اللغة العربية . جورجى زيدان . القاهرة ١٩٠٤ .
- ٤١ - تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي . ١٩٢٤ .
- ٤٢ - تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية . طوبياً العيسى . ط ثانية ١٩٣٢
- ٤٣ - التكملة فيما تلحق فيه العناية . الجواليقي . ملحق بلف القمط .
- ٤٤ - تهذيب الألفاظ العامية . محمد علي الدسوقي : ١٩١٣ .
- ٤٥ - حسن المحاضرة . السيوطي . القاهرة ١٣٢١ هـ .
- ٤٦ - حياة النثر في مصر . دكتور بهي الدين محمد زيان ، رسالة دكتوراه بكافة الآداب ، جامعة القاهرة .
- ٤٧ - دلالة الألفاظ العربية ، دكتور مراد كامل ، معهد الدراسات العربية ١٩٦٣ .

- ٤٨ - رسالة الكلمات الغير العربية . حمزة فتح الله . بولاق ١٩٠٢ .
- ٤٩ - سير الآباء البطارقة . سويسرس بن المتنع . باريس ١٩٠٧ وما بعدها .
- ٥٠ - صبح الأعشى ، التلقشندى . ط دار الكتب .
- ٥١ - فتح العرب لمصر . ألفرد بتار . ترجمة محمد فريد أبو حديد .
دار الكتب ١٣٥١ هـ .
- ٥٢ - فى الأدب المصرى الإسلامى . دكتور محمد كامل حسين .
- ٥٣ - فى اللهجات العربية . دكتور عبد الحليم النجار . مجلة كلية الآداب ،
مايو ١٩٥٣ .
- ٥٤ - قبائل العرب فى مصر . أحمد لطفى السيد . ط أولى .
- ٥٥ - قواعد اللغة المصرية القبطية : دكتور جوزىجى صحى . ١٩٢٥ .
- ٥٦ - قواعد اللغة المصرية فى عصرها الذهبى : دكتور عبد احسن بكير .
ط أولى .
- ٥٧ - كتاب البرهان : سعيد بن بطريق : ١٩٦٠ .
- ٥٨ - كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق : سعيد بن بطريق .
بيروت ١٩٠٥ .
- ٥٩ - لحن العوام ، الزبيدى . تحقيق دكتور رمضان عبد التواب .
ط أولى ١٩٦٤ .
- ٦٠ - لسان العرب . ابن منظور . ط بيروت .
- ٦١ - لف القماط . محمد صديق خان . ط الهند .
- ٦٢ - المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول للدكتور شكرى فيصل ١٩٥٢ .
- ٦٣ - مجموعة الألفاظ القبطية المتداولة : أفلوديبوس لبيب : ط أولى .
- ٦٤ - مصر العربية الإسلامية للدكتور على حسنى انخربوطلى : الأنجلو ١٩٦٣

- ٦٥ - مصر في فجر الإسلام . دكتورة سيدة إسماعيل الكاشف . ط
دار الفكر ١٩٤٧ .
- ٦٦ - مقدمة ابن خلدون . طبع المطبعة الشريفة .
- ٦٧ - مقدمة في نحو اللغة القبطية . ابن كاتب قيصر . مخطوطة بالمكتبة
التيمورية .
- ٦٨ - مقدمة في نحو اللغة القبطية . ابن العسال . مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
- ٦٩ - مقدمة في نحو اللغة القبطية ، ابن الدهيرى . مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
- ٧٠ - مقدمة في نحو اللغة القبطية . السمودى . مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
- ٧١ - من أسرار اللغة . دكتور إبراهيم أنيس . الأنجلو . ط ثانية .
- ٧٢ - من أصول اللهجات العربية في السوادن . دكتور عبد الشيخ غابدين .
ط أولى ١٩٦٦ :
- ٧٣ - نظرات في الصرف العربي . دكتور كمال بشر . حلقة البحث العلمى
بكلية دار العلوم .

ثانياً - المراجع الأجنبية

- 1 — A History of Egypt, Lane Poole, 1925.
- 2 — An Introductory Coptic Grammar, Prof. Plumley, 1943.
- 3 — Arabic Linguistic Studies in Egypt, A.M. Omar, Ph. D. Cambridge.
- 4 — Arabic Papyri, Adolf Grohmann, Cairo, 1934.
- 5 — A Short Account of the Copts, William Worrell, U.S.A., 1945.
- 6 — Colloquial Arabic, De Lucy O'Leary, London, 1963.
- 7 — Common Words in the Spoken Arabic of Egypt, of Greek or Coptic Origin, G. Sobhy, Cairo, 1959.
- 8 — Conversion and the Poll-Tax in Early Islam, D. C. Dennett, Cambridge, 1950.
- 9 — Coptic Sounds, William Worrell, U.S.A., 1934.
- 10 — Coptic Texts from Deir el-Bala'izah in Upper Egypt, Paul E. Kahle, Oxford, 1951.
- 11 — Coptic Texts, William Worrell, U.S.A., 1942.
- 12 — Characteristics of the Hamitic Languages, O'Leary.
- 13 — Elements of the Science of Language, Irach J. Sorabji, Calcutta, 1932.
- 14 — Encyclopaedia Americana, Coptic Language and Literature.
- 15 — Encyclopaedia Britannica, Coptic Church and Coptic Language.
- 16 — Encyclopaedia of Islam, Kibt.